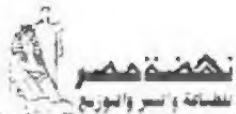


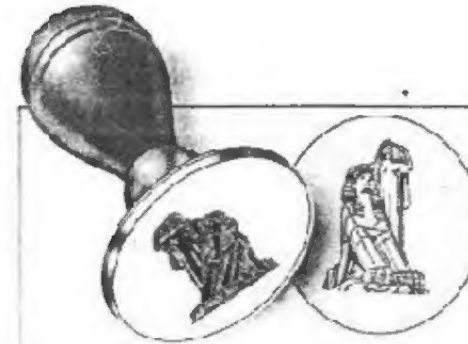


الأسبب في الفقه

عباس محمد العفاد



بسم الله الرحمن الرحيم



اسم الكتاب	الإنسان في القرآن
اسم المؤلف	عباس محمود العقاد
أشرف عام	داليا محمد إبراهيم
تاريخ النشر	يناير ٢٠١١
رقم لايداع	٢٠٠٠/ ١٧٦٧٥
الترقيم الدولي	I . S . B . N 977 - 14 - 1458-5
الناشر	نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع
المركز الرئيسي	٨٠ المنطقة الصناعية الرابعة . مدينة السادس من أكتوبر . ت: ٣٣٠٢٨٧ / ٠١١ / (١٠ خطوط) فاكس: ٠١١ / ٣٣٠٢٩٦
مركز التوزيع	١٨ تر كامل حدقي - الفجالة - القاهرة ب: ٥٩٠٩٨٢٧ - ٥٩٠٨٨٩٥ / ٢ فاكس: ٥٩٠٢٣٩٥ / ٢ ص.ب: ٩٦ الفجالة
إدارة النشر	٢١ تر أحمد غراسي - المهندسين - الجيزة ت: ٣٤٦٦٤٢٤ - ٣٤٧٧٨٦٤ / ٢ فاكس: ٣٤٦٢٥٧٦ / ٢ ص.ب: ٢٠ إمبابية .

إِنْسَانُ الْقُرْآنِ
وَإِنْسَانُ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ



تعداد

إنسان القرآن هو إنسان القرن العشرين . ولعل مكانه في هذا القرن أوفق وأرشق من أمكنته في كثير من القرون الماضية ، لأن القرون الماضية لم تتجنى الإنسان إلى البحث عن مكانه في الوجود كله ، وعن مكانه بين الخلق أجمع على هذه الأرض ، وبين أبناء نوعه وأبناء الجماعة التي يعيش فيها من ذلك النوع . وبين كل نسبة ظاهرة أو خفية ينسب إليها . كما ألبأه إلى ذلك كله هذا القرن العشرون . قديما كان الحكماء يسمون شعابهم في نصيحة الإنسان : « اعرف نفسك ! » وإنا لنصيحة قد تبادف مواقف : من أنت ؟ أو سؤاله : ما أنت ؟ غير أن الإنسان إذا أجه فأنما يجبه باسم : أطني : بعرفه بلامح وجدانه وقسمت ضميره . ولا ينفك حثه تعريفه بالاسم الذي يختار اعتسافا من بضعة حروف . وهو على أية حال سؤل إلى شخص : مع شخص . قد يسمعه عظمون في حجرة الواحدة ويخبرون عليه عشرين جوابا متفرقات .

وقديما كانوا يزعمون أن أما الحول كان يلقى سؤاله : نيلك من لم يعرف جوابه . وكان سؤالا من الحبون الذي يثني على أربع في الصباح : وعن اثنين عند الظهيرة ، وعلى ثلاث عند المساء . فكان مؤلفهم نزا من ألقاؤهم لأقدمين عن الإنسان في أطوار عمره . بين الضل الذي يجو على أربع ، والفق الذي يعتدل على قدمين ، والشيخ الذي يتحمل على سقاء . وهو لفرشيه بطفرلة الإنسان كله . لا تبعد المسافة بين جهله وعلمه ولا بين هلاكه ونه النجاة .

إلا أن القرن العشرين جمع الأسمه . فلم يدع سؤالا عن نسبة من نسب
الإنسان ثم يطلب جوابه . عل ندير بالهلاك من جهل الجواب ، وقد يكون هلاكه
للحسد والروح . . .

ما مكان الإنسان من الكون كله ؟

ما مكانه من هذه المسارة الأرضية بين خلائفه الأحياء ؟

ما مكانه بين أبناء نوعه البشري
واحد ، أو هذا النوع الذى يتألف من
وهي أمة لا جواب لها غير :
سياه وصفوة إيمانه بغيبها المجهول . .
لحياة . . حياته وحياة سائر الأحياء والـ

إن القرن العشرين كان حقيقاً أن يسمى
على مبدأ «عقيدة»، لأنه كلما نتى على الإله
جوابه، وزاد علمه إلى أجزاء أهون من أجزاء
سكوننا عن لأجوبة جميعاً فهو الملاك المحدث

وليس من المبادئ والعقائد التي نسمع عنها في هذا القرن . ويسمونها
الذاهب (الأيديولوجيات) .

ولكن أحقية القرن العشرين ، مهما يكن من شأنها ، فهي أحقية العصر الذي يحل المشكلة لثمنية ولا يعمدها إلى مشكلة الأب : مشكلة ما مضى وما أتى من الدهر وما بقى إلى غير نهاية ، ولا جواب لهذه المشكلة غير العقيدة الدينية التي تؤمن بها الإنسانية . فلا يبقى فيها إيمان فرد واحد يتنه بين خصمه ، أو جواب سؤال واحد لمن يقول : من أنت ؟ وماذا تعرف من نفسك بين عامة النفوس ؟ فشاركك أنت واحد منها بين أرواف الألوف ، عاشوا ويعيشون وسيعيشون ، ولا يسكنون عن تلك الأسئلة عامة . ولا أمان لهم ولا لك إن سكنوا عليها .

هذه العقدة الدينية توجد كما ينبغي أن توجد ، وإنما الضلالة فبين يريدها على غير سواها - حتى نستقيم عليه ، ولا نستقيم على سواه .

هذه العقيدة الدينية لا توجد اليوم لتبني غدا ، ولا توجد على الأيام للغارقين
دون اجماعهم ، وللحاملين دون الحاملين ، ومن يطلبون الخير للناس دون من يطلبون
خير لأنفسهم ، ولن يعتقدون دراية وحبية دون من يعتقدون نسليا ورحبة ، ولن
يسمون سبيهم إلى علم والايتون دون من يعتقدون في مواظبتهم متظنين ، وقد

فمنعها الأسفار والأجود
وعنه سيد أو غيره
أسماء متقرون
هذه
ونحو

يقعدون وهم يجهلون إنهم قاعدون ، لا يعلمون ما الخير وما للشر ؟ إن علموا أنهم منتفرون ! . .

هذه العقيدة بنية حية ، قوامها دهور وأمم ، معاش وآمال ، ونفوس خلقت ونفوس لم تخلق ، ونفوس تخلق لما تراها قبل أن يصير بها ، وسيلها جميعا أن تهدي إلى قبلة واحدة : تنظر إليها فمضي قدما ، أو تنفصا في الألق فهي أشلاء برمقة ، كأنها أشلاء الجسم المشدود بين مفارق نظرين . .

إن القرن العشرين ، منذ مطلع ، يعرض عقيدة بعد العقيدة على الإنسان وعلى الإنسانية ، ولا نعلم إنه عرض عليها حتى اليوم قديما معادا أو حديثا مبتدعا هو أوفق من عقيدة القرآن ، وأرق ما فيها أنها غيبة عن الاختراع والامتحان ، وأنها على شرط العقيدة الدينية من بنية حية ، شملت ملايين الحق وثبت معهم وحدها في كل معترك زبون ، يوم خذلتهم كل قوة يعتصم بها الناس .

ونحن ندعى في هذه الصفحات أن المصنف بن التصريح لا يستطيع أن يتصح لأهل القرآن بعقيدة في الإنسان والإنسانية أصبح وأسلح من عقيدتهم التي يستوحونها من كتابهم ، وإن القرن العشرين سبى ما استحدث من مبادئ ومذهب و « إيديولوجيات » ولا ينتهي ما تمسه أهل القرآن من القرآن .

وإن أهل هذا الكتاب يتدبرون القول ، فيصرون أحسنه إذا تدبروا فم يأخذوا بعقيدة من هذه العقائد التي يروجها دعايتها باسم تادية ، أو العقلية ، أو العقلية ، ويريدون بها أن تكون على الزمن بدلا من العقائد الإيمانية . ومن عقائد الغيب الذي يحسونه معلوما أو موجودا كمعلوم .

وإذا استمع الناس إلى المادية التاريخية . قالت لهم إن الإنسان عمة « اقتصادية » في سوق الصناعة والتجارة ، نعم وتهب في طبقتهم بمقياس العرض ولعلب وصفات الرواج والكساد . أما الإنسانية فقد نهت إلى المادية التاريخية ،

نقالت لما إنها شيء لا وجود له مع طوائفها التي تحملها الأسفار والأمم واستمع الناس إلى القشة قالت لهم إن الإنسان واحد من عنصر سيد أو عنصر مسود ، وإن أبناء الإنسانية جميعا عبيد للعنصر السيد ، والعنصر السيد قبل ذلك عبد للسيد المختار ، بغير اختيار .

واستمع الناس إلى « العقلية » فقال لهم قتل منها إن « إنسانيتهم » كذلك شيء لا وجود له ووهب من أروهم الأذهان : وإن الشيء الموجود حقا هو الفرد الواحد ! . . ورمهان وجوده حقا أن يفعل ما استطاع من نفع أو أذى . كلما أمن اللعبة من سائر الأفراد والأحداث . !

وغير جديد ما استمعوه من أمل العقائد الإلهية عن مكان هذا الإنسان من الأرض والسماء ، ومكانه من إخوته في آدم وحواء . سمعوا له روح وجسد . ودنيا وآخرة ، ينجز شطره بمقدار ما يهلك شطره ، وبصبح له الوجود بمقدار ما أصبح له من غنى الفناء . .

وسمعوا إلى إنسانان . . إنسان صحيح مقبول ، وإنسان زائف مدخول . صحيح مقبول كل من اجتبه مولاة على هواه ، وزائف مدخول كل من خفقه ونفاه ، ولله لم يخلقه ودعاه إليه من دعاه .

وسمعوا أن الإنسان يولد بذنب غيره ، ويموت بذنب غيره ، ويربأ من الذنب بكفارة غيره ، ويمضي بين النعمة واللعة بقدر من الأقدار . لا نصيب له فيه من عصيين أو طاعة . ومن إياه أو اختيار .

وسمعوا من القرآن غير ذلك ، فهم متدبرون يستمعون إلى الفعل كما يستمعون إلى الإيمان إذا اطمأنوا وثبتوا على اطمئنانهم إليه . .

الإنسان في عقيدة القرآن هو مخلقة المسئول بين جميع ما خلق الله . . يدين بعقله فيما رأى وسمع ، ويدين بوجدانه فيما صوره الغيب ، فلا تدركه الأبصار والأسماع .

الكتاب الأول

والإنسانية من أسلافها إلى أعقابها أسرة واحدة لها نسب واحد وإله واحد ، أفضلها من عمل حسنا واتق سينا ، وصنف للثبة فيها لحسنه وتقاه ..

...

وفي الصفحات التالية كتابان في كتاب وجيز . . نبدأها بعقيدة القرآن فنبين هذه الكلمات القلائل في صفحات ، ونتلوها بعرض مفيد لتاريخ البحث عن نشأة الإنسان في مذاهب الفكر والعلم أو مذاهب الفلسف والحياة ، ولا يزيد في سردتها على الألام بما يصلح أن يكون محكاً للتطرف بما يؤخذ بالبرهان أو يتردد بالآراء عن حقيقة الإنسان ..

الإنسان في القرآن

المخلوق المسئول

ارتفع القرآن بالدين من عقائد الكهانة والوساطة وألغى الخاريب إلى عتمة الرشد والهداية . لا جرم كان « المخلوق المسئول » صفوة جميع الصفات التي ذكرها القرآن عن الإنسان ، إما خاصة بالتكليف أو عامة في معارض الحمد والثناء من طاعه وفعاله .

ولقد ذكر الإنسان في القرآن بغاية الحمد وغاية الذم في الآيات المتعددة وفي الآية الواحدة فلا يعني ذلك أنه يحمّد ويدم في آن واحد ، وإعنا معناه أنه ليس للكمال والنقص بما فرض عليه من استعداد لكل منها ، فهو أهل للخير والشر . لا على لتكاليف .

والإنسان مسؤول عن عمله - فرد - وجماعة - لا يؤخذ واحد بوزر واحد ، ولا أمة بوزر أمة :

﴿ كُلِّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾

سورة الطور آية ١٥

﴿ بَلْ لَّكَ أَمَةٌ قَدْ خَلَتْهَا مَا كُتِبَ عَلَيْكَ وَلَكُم مَّا كُتِبَ وَلَا تَعْلُونَ عَمَّا يَكُونُوا يَعْمَلُونَ ﴾

سورة البقرة آية ١٣٤

أما مناط المسؤولية في القرآن ، فهو جامع لكل ركن من أركانها يتغلغل إليه هو الباحث عن حكمة تشريع الدين أو التشريع في الموضوع .

فهو يتصور الكتب قائمة على أركانها المحصلة : تبليغ ، وعلم ، وعمل . ولا تخفى التبعة على أحد . بلغه الدعوة في مسائل الغيب ومسائل الإيمان :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ أَنِ إِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

سورة يونس آية ١٧

﴿ زَيْنَتِنِ اثْنَةٌ إِلَّا خَلَا فِيهَا تَذِيرٌ ﴾

سورة قاطر آية ٢٤

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾

سورة الاسراء آية ١٥

أما التلم فإن أول آية في الكتاب نلفاها صاحب الدعوة الإسلامية ، كانت أسير بالقراءة وتزويها بعلم الله وعلم الإنسان :

﴿ أَفَرَأَوْ رَبَّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾

سورة العلق ٣-١٥

وأول فتح في خلق الإنسان ، كانت فاتحة العزم الذي عممه آدم وإسارته على سائر المخلوقات :

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَكِ فَقَالَ أَتُبْعُونَ بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلِيمُ الْغُيُوبِ ﴾

سورة البقرة آية ٣٢

وأما العمل فهو مشروط في القرآن بالتكليف الذي تسعه طاقة المكلف . وبالمسمى الذي يسماه ربه ونفسه .

﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾

سورة البقرة آية ٢٨٦

﴿ وَإِنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾

سورة الجهم آية ٣٩

﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝ ﴾

سورة الزلزلة ٧-٨

ووصل ببلوغ هم أول المكلفين بالعلم والعمل ، أنهم جميعا أمة واحدة هي
الامة الإنسانية ، رزقهم جميعا إله واحد هو رب العالمين .

﴿ يَتْلُو تِلْكَ آيَاتِ الْكِتَابِ وَاعْمَلُوا مِنْهَا إِنِّي إِذًا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ٥١ ﴾
وَبَيْنَ هَذِهِ مَثَلُ أُمَّةٍ رَحِيَّةٍ أَنَا بَكْرُهَا فَآخَرُونَ ﴿

سورة الزمر ٥١ - ٥٢ .

وفيما ذكر به الإنسان من آيات الكتاب وصف له . وهو في الذروة من الكمال
تدور له يد مستعدة من التكليف . ووصف له وهو في الدرك الأسفل من الخسة
أخر يتعدى به هذا الاستعداد ، وكل هذه الآيات توابع مفصلة فيما ورد من
نصوص الأثر والنبى . والعظة والتذكير . والشراب والعقاب .

فالإنسان أكبر خلقة بهذا الاستعداد تتوزع بين خلقتى السماء والأرض
من دى حياء أو غير دى حياء .

﴿ لَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَنَاءِ وَالْبَحْرِ وَرَدَدْنَاهُمْ مِّنَ
الْأُصْبَاتِ وَقَصَّصْنَاهُمْ عَن كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْصِيلًا ﴿

سورة الاسراء ٧٠ .

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿

﴿ تَحَرَّكْ مَا فِي السَّمُوتِ ﴿

﴿ تَحَرَّكْ مَا فِي الْأَرْضِ ﴿

ولكنه يذكر بين خلقتين بمساوى لا يربط بها غيره . لأن السببة والخسة -
عن السواء - لا يربط بها مخلوق غير مشمول .

فهذا المخلوق المشرك بوصف دون غيره من الخلائق بالكفر والظلم والظفیان
واخمران والنجور والكند ، لأنه دون غيره أهل للابمان والعدل والرجحان
والعفاف .

﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لَقَفُورٌ غَفَّارٌ ﴿

سورة ابراهيم ٣٤ .

﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَافٍ ﴿

سورة العنق ٦ - ٧ .

﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنِّي خَشِيتُ ﴿

سورة حشر آية ١٢ .

﴿ يٰٓأَيُّهَا الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرْ أَمَانَهُ ﴿

سورة قیمة آية ٥ .

﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿

سورة العادات آية ٦ .

وقد يذكر بالضدين في الآية الواحدة كما جاء في قوله تعالى :

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ١ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿

سورة التين ٢ - ١٥ .

ونقرأ في بعض التفاسير أن أسفل سافلين هو أرذل العمر ، وهو ينقص أن يكون
أحسن تقويم . هو تقويم الطفل الوليد .

ونقرأ في غيرها أن أسفل سافلين هي الجحيم ، فيكون لازما أن الجنة هي
المقصودة بأحسن تقويم .

وفيه الكثيرون أن التقويم الحسن هو الصورة الظاهرة لا اعتدال قوم الإنسان .
وليس مجال الخلق وحده مرتبطا باعتدال القوام ، بل تربط به القدرة على العمل

والإرادة ، وهي قدرة لم تخف علامتها بصورته الطاهرة قبل عصر التشريع والعلم
بوقائعه الأعضاء الذي أثبت العلاقة الضرورية بين عدال القائمة وجهاز النطق في
الرأس والعنق وعمود الظهر رسائر لبدن . ثم زاد الناس علما بما يعنيه التكوين الحسن
من فضائل العقل والحسد ومن مزايا النعمة والجمال .

وإنما المعنى الموافق لسائر معاني الآيات . أن الجمع بين التقضين في الإنسان
ينصرف إلى وصف واحد ، وهو وصف لاستمداد الذي يجعله أهلا للترقي إلى
أحسن تقويم وأهلا للتدهور إلى أسفل - طين .

على أن الآيات التي تصرفها تقول على خلق جسد الإنسان . ثم تحل بما يوحى
إلى تحريك المسؤل أن أطوار خلقه لمسوى بماد لما هو شرف من حياته الحيوانية ،
ويبرهن من براهين التبغ برسالة غيب ، على أن ينظر في الخلق فيرى فيه آثار الخالق
الذي لا تدركه الأبصار والأسماع .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٥﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ
مَكِينٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً عَلَقَةً نَظَلْنَا الْمُضْغَةَ مُضْغَةً نَظَلْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا
فَكَسَبْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾

سورة المؤمنون ١٢ - ١٤ .

﴿ ذَلِكَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَلَنُنَبِّئُكَ أَفْرَاجُ الرَّحِيمِ ﴿١٧﴾ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ
خَلْقَهُ وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ مِنْ طِينٍ ﴿١٨﴾ ثُمَّ حَدَّ اسْتَوْرٍ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿١٩﴾
ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ﴾

سورة النجاة ٦ - ٩ .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾

سورة الروم آية ١٢٠ .

﴿ سَخَّرَ لَدَىٰ حَلَقِ الْأَزْوَاجِ كُلَّهَا مِمَّا تَحْتِ الْأَرْضِ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا

لَا يَعْلَمُونَ ﴾

سورة يس آية ٣٦ .

ولا يسأل الإنسان عما يجهل ، ولكنه يسأل عما علم وما رصده أن يعلم . وما من
شيء في عده الغيب أو عالم الشهادة هو محجوب كله عن علم الإنسان ، فما رصده
من علم فهو عامس عليه .

الكائن المكلف

القرآن كتاب تبليغ وإقناع وتبين ، وقوام هذه الفضيلة فيه هذا التوافق الثام بين أركانه وأحكامه ، وبين عقائده وعباداته ، وبين حجته ومقصده ، فكل ركن من أركانه يتنزل فيه بأقداره ، وبوافق في تفصيله سائر أركانه التي تتم به أو يتم بها على قدر مبین .

ليس أتم ولا أعجب من التوافق بين تمييز الإنسان بالتكليف ، وبين خطاب العقل في هذا الكتاب الدين ، بكل وصف من أوصاف العقل ، وكل وظيفة من وظائفه في الحياة الإنسانية .

وخليق بالمسلم ، وبكل دارس للأديان ، أن ينتبه إلى هذه الفضيلة التي تحسب لأول وهلة كأنها شيء من الراجع الديني لا يتجرح إلى انتباهه ، ولكن حاجته إلى انتباهه إنما تظهر عند المقارنة بين القرآن وبين جملة من الكتب الدينية الكبرى ، في فضيلة التبليغ المقصود ، ونعني به التبليغ الذي يراء ويتناسب فيه البيان على حسب الأحكام والأركان .

في كثير من الأديان أركان تقوم عليها دعائم الدين كله ويرتبط بها نجاه الإنسان من الهلاك أو صباغه في هاوية المقت واللعنة ، ثم تبحث عن هذه الأركان في كتاب الدين فإذا هي معروضة فيه بين السطور ، يحيلها المفسرون إلى حكم القرينة ، ويعجز لمن شاء أن يحسبها من مصادقات القول يتساوى السكوت عنها والنس عليها . .

مثل هذا لا يعرف في حكم من أحكام الكتاب المبين ولا في ركن من أركانه ، بل المعروف فيه على نقض ذلك أن تبليغه على قدر فريضة وأن التوافق فيه على كنه بين الأركان التي تتلازم وتتكامل ، عن بيان مقدور لا محل فيه لفرض المصادقة ، بل لا محل فيه لتجاهل القصد مع رسالة من رسالات التبليغ . .

مكان الإنسان في القرآن الكريم هو أشرف مكان له في ميزان العقيدة وفي ميزان الفكر وفي ميزان الخلقة الذي توزن به طبائع الكائن بين عامة الكائنات . .

هو الكائن المكلف . .

هو كائن أصوب في التعريف من قول القائلين : الكائن الناطق ، وأشرف في التقدير . .

هو كائن أصوب في التعريف من الملك المابط ومن الحيوان الصاعد ، وأشرف في التقدير من هذا ، وذلك

ليس الكائن أحق بشيء ، إن لم يكن هذا النطق أهلاً لأمانة التكليف وليس الملك المابط منزلة تسمى في طريق الصعود أو طريق الهبوط ، وليس الحيوان الصاعد بمنزلة النفس بين . كان عليه وما صار إليه ، ولا بمنزلة التمييز بين حال وحال في طريق الارتقاء .

إن الكائن أشرف شيء ، محدود بين الخلائق بكل حد من حدود العقيدة أو العلم أو الحكمة ، وحدث من حوادث الفتح في الخلقة موضوع في موضعه المكن بالقياس إلى كل - عدا .

شيء أعجب من هذه الخاصة المحكمة بتفرد به القرآن بين تعريفات الفلاسفة وتعريفات الدعوة لدينية . .

إنها عجيبة لا يدفع عجبها إلا أنها تجري على مستها من تبليغ الكتاب المبين . . إنها عجيبة لم تثبت من مصادقات التفسير والتخمين ، لأن الكتاب الذي ميز الإنسان بخاصة التكليف ، هو الكتاب الذي امتلأ بخطاب « العقل » بكل ملكة من ملكاته ، وكل وظيفة عرفت له العقلاء والمنعقلون ، قيل أن يصبح العقل « دسماً » بتقصده للدرسون كتباً وعصلاً ، وأثر في دخله وفيها خرج عنه ، وفيها يصدر منه وما يشول فيه . .

العقل وازع العقل ، صاحبه عما يأباه له التكليف . .

العقل فهم ومكر يتقلب في وجوه الأشياء وفي بواطن الأمور . .

عقل رشد يميز بين فداية والضلال . .

العقل روية وتعبير...

العقل بصيرة تنفذ وراء الأبصار...

والعقل ذكرى تأخذ من الماضي للحاضر، وتجمع الحرة بما كـ... لما يكون...
وتعطف ونحى وتبدئ وتعيد...

والعقل بكل هذه المكن بوضوح بكل حجة من حجج التكليف، وكل أمر
يعرف... وكل شيء عن عظمه...

أفلا يعقلون؟ أفلا يفكرون؟ أفلا يسمعون؟ أفلا يتدبرون؟ أليس منكم راجع
رشيد؟ أفلا تتذكرون؟

إن هذا العقل بكل عمل من أعماله التي يناط بها التكليف حجة على المكلفين فيما
يعنيهم من أمر الأرض والسماء، ومن أمر أنفسهم ومن أمر حجتهم، وحق
الأرض والسماء... الآية

﴿يَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ فِي الرِّبَاطِ...﴾

سورة النحل آية ٨١

...

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا...﴾

﴿أَلَمْ يَخْلُقْ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾

سورة الروم ١٨

وقد نقل تكاليف لقراء جميعا، ونقل عطائه جميعا إذا أردت الشواهد على
هذا تفرق الموصول بين تميز الإنسان بالتكليف في القرآن وبين خصايه لعقل
وتفكيره وتذكره بالرفق والبصر وسائر ملكات التمييز في مصنفات الأوائل
ولآخر، ولكنها شواهد حاضرة في ذهن كل قارئ هذا الكتاب، وكل قادر على
التقابة بين وبين غيره من سبب الأديان، ولو لم يجر منها غير صفحة معدودات

ومن تمام الاتفاق بين ركان التبليغ في هذا الكتاب أن الأمر في حوى على هذه
الشيء... فيما أتى به فريدا غير مسبوق عن رسالة النبوة...

إنها الرسالة التي لم تعرف قط في التاريخ البشري قبل تمييز الإنسان بخاصة
التكليف وإعداده لحساب العقل وبيات الاقتناع...

كانت لأم - قبل البعثة الحمديّة - تفهم أن النبوة استطلاع للمعيب وكشف
للأمرار والحقائق، يستعان بها على رد الضائع وإعادة المصروف أو الدلالة عليه،
ويستخرجونها عن طواعية الخير والشر، منادير لسمود والنحوس، وكان من تلك
الأمم من يحسب أن النبوة وساطة بين لعبود ومعبده للتشفع إليه بالهدايا والقرابين،
وكانوا يطلبون وساطة الأنبياء دفعا للزبل التي يستحقونها وتنزل بهم، لأنها قضاء
مزمع بقومته الصالحون العارفون، ويألفون المعبود في دفعه قبل نزوله... نجاة
نبوة الإسلام يجدي باق لم تسبق له سابقة في لدعوات الديانة، بل لا حاجة بعده
إلى جديد ولا استطاعة لتجديد، لأنه يخاطب في الإنسان صفة الباقية وخاصته
الملازمة، وهي خاصة النفس النافعة بين عامة الأحياء، أو خاصة النفس المستول
الذي يحمل بعثته ولا تعبه عنها شدة ولا كلفة من سواه...

فهو نبوة وهم وهدية، وليست نبوة استطلاع وتنجيم... وهي نبوة هداية
بالأمل والنظر والتفكير، وليست نبوة خوارق وأهول ترويع البصر والجبروت وترويع
الضائر بالتحذير والأرهاب حيث يبيها قبول الاقتناع.

إنها نبوة مبشرة منلوة لا تملكت فزع ولا خرا، ولا تعمل لهم عملا غير ما
يعملونه لأنفسهم بمحبتهم إذا اعتدوا بهداية العقل المتدبر والضمير السليم:

﴿قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَلِقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عِظْمٍ مِنْ بَرٍّ ذَلِيلٍ...﴾

﴿لَا تَسْكُرُ مِنَ فَحِشِ مَنْ سَبَّكَ...﴾

سورة الاحزاب آية ١٨٨

نعم... ولا إغراء ولا مساومة على جزاء بين الأخذ ولعطاء:

﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي ثَمَرٌ مِنْ اللَّهِ...﴾

﴿مَنْ أَنْتَ أَنْتَ...﴾

سورة الانعام آية ١٥٠

فن خلال التفكير قديما ، أنه ما قبل المنقول إلى ذلك الفصل الحصف بين
عالم التور والملك الأعلى ، وعالم التراب والأرض السفلى ..

كل ما فوق القمر فهو صفاء وطهارة ، وكل ما دون القمر فهو كبر وكنس ،
وكل ما هناك فهو جوهر خالص ، وكل ما دونه فهو عرض مشوب أو أعرض لا
يصفو لها وجود ولو أشرق عليها عالم التور .

وعلى مثل هذا «التفاضل» السلم به بين اثنين والفرق ، وبين الجوهر
والعرض ، فدور كل ما دار قديما وحديثا - في الدين والعلم - من عزلة شيل بين
الصفاء والكنس ، وبين العقل والمادة ، وبين الروح والجسد ، وبين النفس من
التور والظلام ..

إن هذا الاعتصاف في التفريق بين هذين الوجودين متباين . قد عصى العقل
رمت طويلا عن فهم حقائق النفس ، كما عصى ولا يزال بعض عن فهم حقائق
التكليف وحقائق الأديان .

إن العقل ليعلم اليوم أن ذرات التراب وذرات النفس ، من نفس واحدة . وأن
خمر الياس ينتجت ماذا هو شعاع ، وأن شعاع صحت يمتد ويمتد بهذا هو
حجر ، وأن الفصيل بين ضياء الملك وضياء العقل قائم لا شك به ، ولكن لا شك
كذلك في صفاء هذا الأمر على العلم كخفائه على الإيمان .

لماذا يقول العالمون بقوة من «المؤمنين» بالمادة دون الروح ؟

مذا يقولون عن عقل «المدماغ» كيف يرى ما لا تراه العين شعاع ضياء ؟
سبحون علماء ما قال به قارى الكتاب إنما حور قبل أنه من الروح فسمع
وصدق وقبه مطمئن بالإيمان :

﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ لِأَنْتُمْ بِالْأَنْبِيَاءِ ﴾

سورة الاسراء : ٨٥

النفس

تكلم حكماء اليونان عن العقل والروح والنفس بمعانيها التي نسب إلى
الكون ..

وتكلموا عن العقل وروح والنفس بمعانيها التي نسب إلى الإنسان .. ورتبوا
على حسب صفاتها وعلو جوارحها . فكان العقل عدهم أولها وأشرفها ، لأن جوهر
العقل المطلق هو الله جل شأنه . والعقل الأدنى هو العقل الفعال Poetikos الشرف
عن المادة والغير ، ومنه يصدر العقل الإنساني أو العقل المنفعل Potetikos
ثم تأتي الروح والنفس بعد ذلك في الصفاء والشرف .. فتقدم أن الروح أقرب
إلى عنصر نير ، وأن نفس أقرب إلى عنصر الهواء والتراب ، ويقولون :
أعرض أن العقل الأدنى نفس صمد صدر عنه النفس ، ومنه صدر ما دونه من
الموجودات على ترتيب سرفها وصفاتها . وهم يذكرون النفس بصيغة المذكر
ويتبعهم في ذلك من كانوا بحرية وتابعوهم في ملذاتهم المصوية .

والروح أرفع من النفس في درجات الوجود ودرجات الحياة عند أكثر حكماء
اليونان ، فهم من ينسب النفس إلى الكائنات المضرية جميعا ومنها كل نبات ينمو
ويولد ويوصف ببعض صفات لأحياء ، فمعنى النفس عندهم عن هذه الصفة
مرادف لمعنى «الحركة الحوية» أو معنى القوة التي تجعل أعضاء الجسم الحي عتقة
للأجسام المادية في قابلية نمو والتريد ، ونصبها من الآداة أكبر من نصب الجاد
وأصغر من نصب الروح . فمنها لا تملك الانتقال من مكان إلى مكان في
العمل والروح وليس قوي حية على هذا الترتيب من الشرف والصفاء ،

والإنسان له نصيب من العقل .. ولكنه دون العقل الفعال في جوارحه وترتبه عن
أداة وأهيب ، وه روح يعلوه على سائر الموجودات ، ونفس قد يثرب بها من
الكائنات التي تنمو وتنمو وترتبه على درجات .

إن هذا الاختلاف بين هذه القوى في مصطلح الحكمة اليونانية ، وفي لغة الكتاب المبين ، يقاس من نسبة إل كثرته سادة ويقاس من ناحية إن الله الأعز ، وهو الله .

وقد يقاس الكمال في مصطلح الحكمة يونانية في الجوهر بمقدار ارتدعه ، وفي المادة أو الميول بمقدار هيومته .

ويكن كمال هذه القوى في لغة القرآن مقبس إلى كمال الله جل شأنه . . فأرفعهم وأشرفهم ما كان أقربها إلى الصفات الإلهية وذاته وأخصها ما كان أبعد من حيث الصفات

ومن المقابلة بين هذه القوى ، كما ذكرت في الكتاب المبين ، أنه تبين أن روح ، هو أقربها إلى الحياة البقية وأشدها عن مدارك الحسية . وأنه الجانب الذي ستأثراته بعلومه واحتجب عن أنبيائه ، لأنه سر وجود المطلق . لا قدرة للنفس الإنسانية المحدودة على لاحاطة به روح ، فلا يناسب من الإثارة ، فخرس

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٧١﴾
«سورة يسراء ١٧١»

أما العقل والنفس في بيان القرآن الكريم ، فالراجع أن النفس أقرب إلى الطبع أو بقوة الحيوية التي تشمل لإرادة كما تشمل الغريزة ، وتعمل واعية كما تعمل غير واعية . وتأتي في موضعها من الآيات كثيرة مرادفة للقوة التي يتركها الله . والقوة التي يزهقها القتل ، والقوة التي تحبس البعثة والعذاب وتهم الفجور والقوى ، وتحاسب على ما تعمل من حسن وسين . . فهي القوة التي تعمل وتريد . مهتدية بهدى أحفل أو متفاداة لتوازع الضع والحي ، وتوضع لها المويين انفسط يوم قيامة . .

﴿ اللَّهُ يَتَوَكَّلُ عَلَى الْإِنْسَانِ عَيْنَ مَوْتِهِ وَإِنِّي لَنُحْيِي فِي مَتْلَمِهِ ﴾

«سورة ابرآة ٤٥»

﴿ وَمِمَّا أَلْهَىٰ عَنْكُم مِّنَ ذِكْرِ اللَّهِ لَعْنَةُ الْفِتَنِ مَا وَعَدَ اللَّهُ بِالْهَلَاكِ ﴾

«سورة الانعام آية ٩٠»

وإذا ذكر قتل النفس في القرآن ، فإنما هو قتل الانسان أو الناس على حسب الحطاب إلى الفرد أو الجماعة :

﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَدٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾

«سورة المائدة آية ٣٢»

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ «سورة النساء آية ٢٩»

﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فِرْيَانَكُمْ مِنْ دِينِهِمْ ﴾

«سورة البقرة آية ٨٥»

ولكن الانسان أعم من النفس لأنه مسئول أن يتها :

﴿ وَأَن مِّنْ حَافٍ مَّقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ فَمَنَ الْخَسِرَةُ هِيَ ﴾

«سورة الزمر آية ٤٠-٤١»

الذات

فجملته هذه القوى من النفس والعقل والروح هي «الذات الانسانية» تدرك كل قوة منها على «الذات الانسانية» في حالة من حالاتها ، ولا تتعدد «الذات الانسانية» بأية صورة من صور التعدد لأنها ذات نفس أو ذات روح أو ذات عقل ، فإنها هي إنسان واحد في جميع هذه الحالات ، وفي تعبيرات عنها في جميع اللغات تقفى بها ضرورة الكلام عن كل قوة خفية تدرك أعمالها ولا تدرك مصادرهما ، وعلى هذا انحر تكلم الناس عن ملكات العقل والنفس والروح ، وعما ينسب إليها من رعى باطن وعي ظاهر ، ومن ضمير ووجدان وخيال وحافظة وبديهة وروية إن غير هذه الأسماء التي تتعدد للتمييز بين الأعمال ، وإن لم تعدد في مصدرها المعلوم أو مجهول .

وتد ذكرت النفس في القرآن بجميع قواها التي يلزمها اليوم علماء النفس المتخصصون لهذه الدراسات في موضوعاتها الحديثة .

قوة السوافع الغريزية تقابل النفس « الأمانة بالسوء » .

﴿ وَمَا أَتَرَىٰ نَفْسِي إِذْ أَلْتَقَسُ لَأْمَارَةً بِأَسْرِهِ ﴾ سورة يوسف آية ٥٣

وقوة النفس الواعية تقابل النفس للهامة :

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿١﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٢﴾ قَدْ أَفْحَحَ مِنْ رَجْمِهَا ﴿٣﴾ وَقَدْ خَلَبَ مِنْ دُسْنِهَا ﴿٤﴾ ﴾ سورة الشمس آية ٧ - ١٠

وقوة السمير تقابل النفس اللوامة ، وهي النفس التي يقع منها الحساب كما يقع عيب ، وجاء ذكرها من أجل ذلك مقرونا بيوم القيامة

﴿ لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴿١﴾ وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ الْمَوْتِ ﴾

سورة النبأ آية ١ - ٢

ثم ذكرت موصوفة بالابصار والعلم بمواقع الاعذار :

﴿ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ﴿١﴾ بَصِيرَةٌ ﴿٢﴾ وَلَوْ لَوْ أَنَّ مَعْرُورَةً ﴿٣﴾ ﴾

سورة القيمة آية ١ - ١٥

وقوة الإيمان وانحة بالعيب تقابل النفس المظلمة :

﴿ يَأْتِيَنَّهَا النَّفْسُ الْمَظْلُومَةُ ﴿١﴾ أَرْجَىٰ إِنَّكَ لَرَبِّكَ رَاضِيَةٌ مَرْضِيَةٌ ﴾

سورة النجاة آية ٦٧ - ٦٨

وفي كل موضع من هذه المراتب ، تذكر النفس الانسانية بمائة هذه القوى . حجمها خاصة واحدة هي خاصة الانسان في القرآن ، وهما كما تقدم خاصة كائن الكلف لمستول

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿١﴾ ﴾

﴿ وَنَصَعَ لِمُؤَيِّنِ الْفِتْنَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَلَا تُطْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾

سورة الاحقاف آية ٤٧

﴿ يَوْمَ يُحَدِّثُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّخَصَّرًا ﴾ سورة آل عمران آية ٣٠

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انشَقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا أَلْجَأُ مَضْرُوتٌ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا نَعْبُدُكَ بِرَبِّكَ كَكُورٍ ﴿١﴾ أَيْدِي حَلْقِكَ فَسُوءَكَ فَعْدَكَ ﴿٢﴾ ﴾

﴿ فِي لِي ضَرْبَةٌ مَثَلٌ وَكَذَلِكَ هُوَ ﴾ سورة الانفطار آية ١ - ١٨

﴿ وَهُوَ النَّفْسُ زُوجَتٌ ﴿١﴾ وَهُوَ الْمَوْتُ دَهْلُكٌ ﴿٢﴾ إِنِّي دَسِبْتُ قُنْتُ ﴿٣﴾ ﴾

﴿ وَإِذَا الْفُجُورُ بُرْتُ ﴿١﴾ وَهُوَ السَّمَاءُ كُنُطَتْ ﴿٢﴾ وَهُوَ الْجَحِيمُ بُرْتُ ﴿٣﴾ ﴾

﴿ وَهُوَ الْمَوْتُ زُوجَتٌ ﴿١﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَخَصَّرَتْ ﴿٢﴾ ﴾ سورة النكوير آية ٧ - ١٤

وجملة ما قبل في معنى « النفس زوجة » ، أنها تفرق بمقرمتها وأعمالها أو تضم إلى أشباهها وقربانها .

فحساب النفس من حساب لإنسان ، ولكن الذات الانسانية أعم من النفس ومن العقل ومن الروح حين تذكر كل منها على حدة ، فإن الإنسان بحاسب نفس ليهاها عن هواها ، ولكن الروح من أمر الحق الذي لا يعلم الإنسان منه إلا ما علمه الله ، ويتوسط العقل بين القوتين فهو وازع الغريزة وممثلها هداية الروح .

ولمنا نفقه من مدى القرآن ترتيب هذه القوى في الذات الانسانية ، وعمل كل منها في القيام بالتكليف وتمييز الإنسان بغيره كائن السؤل ..

فلا إنسان يعمل على نفسه بعقله ، ويعمل على عقبه بروحه ، فتصل من جانب نفس بقوى الفرائض الجيدانية ودوافع الحياة الجسدية ، ويتصل من جانب الروح بعلم البقاء وسر الوجود الدائم وعلمه عند الله .. وحتى العقل أن يدرك ما وسعه من حناها المحدود ، ولكنه لا يدرك الحقيقة كلها من جانبها المطلق إلا بإيمان وإلهام .

الْأَمَانَةُ

وردت كلمة لأمة والأمانات في خمسة مواضع من القرآن الكريم ، وكلمة
 يتلقى الذي يبعه . عهد والمسئولية وحصلت هذا المعنى في آية من سورة
 البقرة : يوصيكم الله في أولادكم . إذا قال غار في صبيان وثائق الدين :

[illegible]

نو هذا : آية حسنة لأمانة محمد يائس عليه مرد من حذوق وشيول .
 . . . كما لا سرع من آية بغيره . كبير ، أو كنعان ، لأمانة العامة . وهي الحق
 وغريضة روح حق من وفريضة . فلا يجوز من عمر عما أن ينسج حقه :
 ﴿ وَلَا تَكُنْ كَآبِتٍ ﴾ . بَكُنْتَ كَآبِتٍ . سورة غفره آية ٢٨٢ .
 وكل مريد في غير سياق الدين والوفاة فالحكم فيه عام وإن ورد على سبب
 خاص ، لا . مذمت لتزول لا تمنع مريد الحكم والتطبيع إلى جميع المخطوبين
 آيات الكتب

حاء في سورة —
 ط و ن ح م ر ن
 حاء في سورة —

قال الإمام محمد بن في الكشف : واخضب عاه لكل أحد في كل أمة .
 وفيه : قلت في علمي - رطلته بن عبد الدار . وكان سادس الكعبة . وذلك في رسوله

له صلى الله عليه وسلم حين دخل مكة يوم الفتح أغلق عثمان باب الكعبة وصعد
سطح وأتى أن يدفع المفتاح إليه وقال : « أو علمت أنه رسول الله لم آمنه ، ملوى
على بن أبي طالب رضى الله عنه يده وأخذته منه وفتح ، ودخل رسول الله صلى الله
عليه وسلم وصل ركعتين . فلما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح ويجمع له السقاية
والسدانة ، فزلت الآية ، فأمر علياً أن يريه إلى عثمان ويعتذر إليه ، فقال عثمان
لعلى : « اكبره وأذيت ثم جئت ترفق ؟ » فقال : « لقد أنزل الله في شأنك قرآناً ،
وقرأ على الآية . فقال عثمان : « أشهد أن لا إله إلا الله وشهد أن محمداً رسول
الله » .

ومضى الامام الزعفراني في تفسير الآية إلى أن قال : « ويل هو خطاب للولاء ،
بإدائه الامانات والحكم بالعدل ، وقرىء الامانة على الترجيد ،

وقد الجالين أن الآلة وإن وودت على سبب خاص فعموما تعتبر بقرنة

ويقول الأستاذ لإمام الشيخ محمد عده : « إن الظاهر أنها نزلت في فتح مكة وأن النبي عليه السلام تلاها استشهاده »

ومن تفسيرات التأخرين تفسير الجواهر للشيخ طنطاوى جوهرى يقول إن الأمانة
أكمل ما أوتئتمت عليه من قول ، أو عمل . أو مال ، أو علم ، وبالحكمة كل ما يكون
عند الإنسان من النعم التى تغيد نفسه وغيره وإن الخطأ موجه إلى الناس عامة
وإلى الحكام وولاة الأسر

وَذَلِكَ الْأَمَانَاتُ وَالْعَهْدُ فِيهَا رَدُّ فِي سُورَةِ الْمُؤْتَفِكِينَ : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِهِمْ وَعَهْلِهِمْ رَحِيمٌ ﴾

فهى تشمل كل ما يربىء الانسان من عهد ودية . وهذا هو معنى الأمانات فى سورة الأفعال . وعلى هذا المعنى - إجمالاً - يفهم كل تبليغ خوصب به الناس عامة وإن تردت به الآيات المناسبة خاصة

وَالْأَمَانَةُ الَّتِي عَرَضَتْ عَلَى الْحَقِّ سِدَّةً ، فَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ وَلَمْ يَمْسَسْهَا أَحَدٌ مِنْ

حقه ، فهي أعم من الماسيات الخاصة والماسيات العامة بالنسبة إلى أحكام
التيخ ، لأن الأمر فيها أمر التكوين والاستعداد بقطرة التي فطر عليها المائل وغير
المائل واستند لها الحي وغير الحي : وعطاب بتجليغ وغير الخطاب .. وفي هذا
موضع من القرآن الكريم ذكرت هذه قطرة مقرونة بقطرة الخليفة كلها ، وذكرت
بمعها صفة الانسان التي تخصه من عامة مخلوقات حين يتصل أعاءها ويعملها ، وما
كان ليحملها إلا أن يتعرض لثباتها فهو ظلم جهول .. ظلم لأنه يتعدى الحدود
ويجهول ، وجهول لأنه يتعدى تلك الحدود وهو لا يعلمها . وعنده أمانة النقل
أني تنبيه إلى عملها .. وما من كائن غير الكائن اعقل بوصف بالظلم والجهل ، لأنه
لا يعرف الحد الذي يتعداه ولا تناط به معرفة الحدود . وإنما بوصف بالظلم والجهل
من يصح أن يوصف بالعدل والمعرفة . ومن يصح أن يسأل عن فعل بريده في
حاجته

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا عَرَضَتْ نَفْسٌ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبِلِّ قَائِلَةً
: إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَحْمِلَنِي مِنْهُنَّ وَأَحْمِلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾

سورة الاحزاب آية ٧٢

وذكرت هذه القطرة الانسانية في موضع آخر من الكتاب ، مع ذكر نكرة
الانسان وولايته زمان المكاتات مفضلا عن كثير من المخلوقات . فقال تعالى في سورة
اسراء :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَخَلَقْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ خَيْرًا وَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ ظُلُمَاتٍ إِلَى
نُورٍ وَخَلَقْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَجْزِئًا ﴾

سورة الاسراء آية ٧٠

« وكثير ممن خلقنا » في هذه الآية شمل كل مخلوق لم يكن أهلا لأمانة الخبير
وإشر أو لأمانة التكليف ، بما أودع به من فطرة التكوين .

...

ولقد وضع معنى « الأمانة » في هذا الحكم نعام وضوحا لا يقبل اللبس أو

الانحراف بفتحهم عن جوهره المقصود ، وهو التكليف .. فن لم يذكره من المفسرين
بنصه ، ذكره بمقتضاه وبتعلقاته ، وهي ملازمة له لا تنفك عنه ..

وهذه تسئلة من أقوال المفسرين الذين ناقشوا الآية بالمعنى الذي فهم من
كلمة الأمانة منذ صدر لاسلام إلى القرن الرابع عشر للهجرة

قال الامام الزمخشري للترقي في سنة ٥٢٨ للهجرة : يريد بالأمانة الطاعة فقط
أمرها وفقرتها ، ويراد بها الطاعة لأنها لازمة الوجود كإن الأمانة لازمة الأداء .
وعرضها على الجمادات وإيروها وإشفاقها مجاز . وأما حمل الأمانة فمن قولك . فلان
حمل للأمانة أو حمل لها ، تريد أنه لا يؤديها إلى صاحبها حتى تروى عن ذمته
ويخرج من غلبتها

وقال جيسوف الفخر الرازي الموفى سنة ست وسنة للهجرة : « إنا عرضت
الأمانة ، أي تكليف وهو الأمر بخلاف ما في الطبيعة . واعلم أن هذا النوع من
التكليف ليس في السموات ولا في الأرض لأن الأرض وحسن والسماء كلها على ما
خقت عيبه . الجبل لا يطلب منه السير ، والأرض لا يصب منها المهرود ولا من
السماء الهبوب ، ولا في الملائكة . لأن الملائكة وإن كانوا مأمورين منبهين عن أشياء
نكن ذلك ما كالأكس ولشرب لنا ، فيسبحون الليل ونهار لا يفترون كما يشتغل
الإنسان بغير مراقب لظنه ... »

قول الامام الفيلسوف في تفسير حمل الأمانة . « لم يكن باؤذن كلياته إبليس في
قوله تعالى : « أأبى أن يكون مع الساجدين » من وجهين أحدهما أن هناك السجود
كان فرضا . وبما هنا الأمانة كانت عرضا ، وثانيها أن الآية كان هناك استنكافا وها
هنا استصغار . استصغروا أنفسهم ، بدليل قوله تعالى : « وأشفق منها » ... وقال
بعضهم في تفسير الآية إن المخلوق على قسمين : مدرك وغير مدرك ، والمدرك منه من
يدرك الكس والحزنى متى الآدمي ، ومنه من يدرك الجزئي كنيها ثم تدرك لشعر الذي
تأكله ولا تفكر في عرق الأمور ولا تنظر في الدلائل وحاشي . ومنه من يدرك
الكس ولا يدرك الجزئي كالمالك يدرك الكليات ولا يدرك لذة الجماع والأكل . قلوا :

وإلى هذا أشار الله تعالى بقوله : « ثم عرضهم على الملائكة فقال : استويوا بأسماء هؤلاء » ، فاعترفوا بطم علمهم بتلك الجزئيات ، والتكليف لم يكن إلا عمل متبرك الأسرين ، إذ له لذت بأمور جزئية تقع منها تحصيل لذات حقيقته هي مثل تلك الملائكة بعبادة الله ومعرفته ، وأما غيره فإن كان مكلفا يكون مكلفا لا بمعنى الأمر بما فيه عليهم تكلفة ومشقة ، بل بمعنى الخطاب فإن المحض يسمى مكلفا كما أن الخطم مكلف ... » .

وقال الإمام ابن كثير للثوري سنة ٧٧٤ هـ : « عن ابن عباس : يعنى بالأمانة الطاعة ، عرضها قبل أن يعرضها على آدم فلم يعنه ، فقد لآدم : في قد عرضت الأمانة على السماوات والأرض وأحد فلر بضمه .. فهل أت أحد بما فيها ؟ قال : يا رب .. وما فيها ؟ قال : إن أحسنت حريث وإن تسأت حوثت ، فحذره آدم فتحسبه ... » وقال على بن أبي طالب : « عن ابن عباس : لأمانة المؤمن ، عرضها لله على السماوات والأرض وأحد .. إن أقوها أثبت وإن ضيعوها عذبهم . فكهروا ذلك وأشفقوا من غير معصية ، ولكن تعصيا للدين أنه ألا ينموا بها ، ثم عرضها على آدم فقبلها .. » .

قال مجاهد ومحمد بن جابر والحسن بن علي : « عرضها على السماوات والأرض وأحد .. » ثم أورد الإمام ابن كثير أقوالا أخرى مروية عنه أصحابها . وعقب عليها قائلا إنها كلها ، لا تنافي بين ، بل هي متفقة ورواجعة إلى أنها التكليف وقبول الأوامر والتواهي بشرطها .

وجه في تفسير الإمام السيوطي الحديث سنة ٩١١ هـ : « إن عرضها الأمانة - السماوات والجبال ، من فعلها له شهاب ومن فرقها عليه العذاب . »

وقال الإمام محمد جمال الدين القاسمي توفي سنة ١٣٣٢ هـ

... عبر عنها بالأمانة تنبيها على أنها حقيق موعبة وأودعها في قلب المكلفين .

وتعظيم عليها ، وتوجب عليهم تلقاها بحسن الطاعة والانتباه ، وأمرهم بمراعاتها وغرفة عليها وأدائه من غير إخلال بشئ من حقوقها ، ومعنى الآية أن تثبت الأمانة في عظمة الشأن بحيث لو كنت هاتيك لأجاء العظام - التي هي مثل في القوة ونشدة - مراعاتها . وكانت ذات شعور وإدراك ، لأعين قلوبها وأشفق من ... أما قوله تعالى : وحسب الإنسان أي عند عرضها عليه ، إما باعتبارها بالاسمعة إلى استعداد ، أو بتكليفه بها يوم المثلث - أي تكليفها والتزامها مع ما فيه من ضعف بنية ورخاوة القوة ، وهو ، حارة عن قبولها بتوجب استعداده القضي . أو من عثره بقوله : من ... وقوله تعالى : إنه كان ظلوما جهولا اعتراض وسط بين جعل وعثرته للزيادة من أول الأمر بطمه ومثله بما عهده وتحمله ، أي إنه كان مدطاف في نظمه مائة في الخيال . أي تحسب غلب أفراده الذين لم يعملوا بتوجب نظريته سببه ...

وقال صاحب تفسير البحر مرزبة هذه إحدى ، ثم نقل تفسير الفقيه ... عن حميد لأمانة : « فحين أن يعصها وحسبها الإنسان ، أي بين ... » . وعقب ونحو الإنسان : « ... » . ولا يزال هنا هو الكافر والمفارق ...

ولا تختم هذه نقبسات قبل أن تعود إلى الاستدراك الذي بدأنا به . وهو لا تدور على معنى شكلي . وأن الاختلاف عن المذاهب التي تترتب عليه هي هو دليل على معنى الاستعداد لخطري لعضام وما عداها ، أو على معنى التيقظ في سمة بمحذرة حدود التكليف ، ضئاع العلم به وجهلا مع القدرة على التمر والاستعداد في أمره .

لأن معنى الاستعداد لخطري لا غنى إذا روجحت الآيات التي ورد فيها ذكر صفات الإنسان بمعنى حس الإنسان منه يذكر بهذه الصفات في مواضع كثيرة مع ذكر آيات التكوين والخلق وتصريف قوى الطبيعة ، فقد ذكر تكريم بني آدم مع سلطان على نروجر وزيق والفرع والتفصيل على كثير من خلايق الله . وذكر

﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝ الَّذِي هُوَ أَعْلَى كُلِّ شَيْءٍ مُدْرِكٌ فَعَلَهُ ۝﴾

سورة الأعلى آية ١-٣ .

...

﴿وَمَنْ أَرْسَلَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِإِذْنِ قَوْمِهِ ۚ لِيُبَيِّنَ لَهُ مَا فُيِّضَ اللَّهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝﴾

سورة إبراهيم آية ١٨ .

...

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَبْغِي ۚ وَتَعْلَمُ اللَّهُ مَا تَفْعَلُ ۝﴾

سورة إبراهيم آية ٢٧ .

...

وبتأمل الآيات بهذا المعنى نجد عن الذهن . يكون فب محال للتأويل بعبر معناها
تظهر على اختلاف عبارة والمناخية ، فعدم الظهور لا تأويل فيه أن الله
سبحانه وتعالى هو المفعول ما يريد الذي حتى عباده ويخلق ما يصلون .

في هذا تناقض في حكم العقل إذا نظر في الأمر كنه نظرة المعقول ولم تقصر
النظر في النصوص . أو إلى وجوب الاعتناء بمقتضى هذه النصوص ؟ .

من الرجوع بالنظر في أسسها المحتملة عن كل احتمال . تنق التناقض . ويرى
كيف يكون هذا الاعتناء حلاً للمشكلة ، من أسسها القروية جميعاً . وغروجا
من تناقض الذي يربطها على كل احتمال عن هذا الاحتمال ..

ويكن الإنسان روحاً وعقلاً خلقه الله . . . يكن ترك عباده من تركيب
الددة في خلقه أحد . على قول المؤسسين بأشياء مجردة من تفكير والارادة ..

ولكن اعتكاف زيادة من عند الله أو يكبر ضرورة من قصه الواقع لا يرتبط بها
أمر ولا جزاء .

وكيف يتصور العقل إرادة الإنسان على كل احتمال ؟

إله لا يتصورها إرادة مطلقة من جميع القيود ، لأن إرادة إنسان واحد تتضح
بغير قيد هي قيد لكل إنسان سواء . وكيف يأتي هذا الإنسان الواحد بإرادته نصفه
منفرداً بها بين أشانه المتبدلين ؟ .

أما أن يوجد الناس جميعاً بإرادة مطلقة لكل منهم على سواء ، فهذه هي
الإحالة العقلية في الفرض والتقدير قبل الوصول بها إلى الاتحاد والتحقق .

فإذا كانت الإرادة المطلقة هي إرادة الله . فخلق الناس متكفين بغير إرادة هم
شيء غير معقول وغير مقبول ، لأن سقوط التكليف لا معنى له في هذه الحالة . لأن
يخلق الله جميعاً متساويين متساويين في العمل صالح الذي يساقون به .
كما تنافى الآلات . فلا فضل إذن للعقل على غير العقل ، ولا تمييز للإنسان عن
الجماد الصمد من الخس ، فضلاً عن الحيوان ..

فإذا وجب تكليف الإنسان ، فلعقل الإنسان لا يوجب إلا كما ينبغي أن يوجب
على حدة واحدة لا سواها ، وهي حالة الإرادة المخلوقة بوضعها في الخلق كمن سعى
أن توجد . وهي لا ينبغي أن توجد . لا على هذا الفرض الذي يدعى إليه .

إن الحرية الحقيقية حرية صحيحة كما ينبغي أن تكون في احتمال العقل سرمد
الذي انتهى بإذن الله لا اختلفوا فيه .

ولا يقال إن الحرية التي تخلق ببيت بحرية .. فإن الحرية غير المقيد سواء كنا
مخلوقين أو مطبوعين . وسواء كنا من عالم الروح أو من عالم المادة عند التمييز كما
تباين قيمة المعدن نفيساً وغير نفيس ، وكلاهما مخلوق أو مصنوع ، فإن صفة الآلية
الذهنية والآلية الحسية لا ينفك غفلة الأولى ولا يسرى بين الآيتين المصوغتين
وليس في عقل شيء يسمى حرية مصبوعة تلوع عن الحرية المخلوقة بالانطلاق من
جميع القيود .. لأن الانطلاق من جميع القيود غير معقول ، وغير مرسود ..

...

وإذا وجدت للمخلوقات العقلية حرية أو وجدت لها إرادة ، فلنرجع إلى عقل
نرى كيف يتصوره العقل - أي عقل - وكيف تكون على احتمال واحد دون كل
احتمال ..

به لا تكون سواء في كل إنسان ، لأنها إذا امتنع فيها خلاف القوة لم يمنع فيها

خلاف الزمن والعمر ، ولا خلاف المكان والجسد ، ولا خلاف الصغير والكبير ، ولا خلاف ، الحركة واجمود

وإذا امتنع فيها كل هذا لخلاف نسبت هي بشيء ، إذ يستلزم الوجودات التي لم تتأزول متنوع بأشياء بقلها الصور . بل هي عدم ينقطع عن الوجود ، أو كثر لا تميز فيه ولا تكثيف ولا حسنة ولا سبة ، ولا ثوب ولا عقاب

إذا وجد المخلوق حراً ذا إرادة فلا وجود له إلا بهذا الاختلاف في حكم العقل كلفا كان حكم التصدي

وإن قصر العقل بهذا دون غيره ، فالعقل هو الذي يتصور إرادة الله وإرادة الإنسان على احتواء واحد دون غيره ..

وحكمه لايمان هن وحكم العقل مثالان إذ كان كل واحد حرة ، الايمان فرضاً غير مقبول بل غير موجود

• • •

ونحن نذكر في حق من القول بكيفية العقل وحده لخلق حسب التكليف إذ كان غير : فيسوف مع يذهب إلى العقل بين مقتضى لفروض . ولا يستقران عن فرض ممكن أو صالح غير عماد التكليف على العقل واعتماد على الايمان

والانكار الجزاف يقع العقل في تقويض ، وهو تعطيل العقل أفضل من كل تعطيل ..

وإنما تساوينا حيرة في مسائل الايمان عامة من خطئ شائع يوهم أناساً من المتدينين والشكرين أن الايمان على مداوم تسليم بما يأباه عقل وما يتقبله - إذا قلناه - وهو مغمض العين مكتوف اليد ، يتساوى منه التفرد ترك النظر ، لا احتداد ولا محاراة ولا موازنة بين ما يحور وما يمتنع كل الامتناع

هذا إيمان يغني العقل ويقي به بعيداً إلى طرف التصديق غير سؤال ولا نظار جواب .. فلما عقل ولا تصديق ، وإنما تصديق ولا عقل : ضدين لا يجتمعان ..

• • •

وغير بعيد بين الايمان الذي يعي العقل ، والايمان الذي يعمل فيه العقل غاية حسنة . ثم يعلم من ثم أن يشي بأن سدى الايمان

إن الايمان هنا نتيجة لعمل العقل غاية جهده ، وليس نتيجة لاهماله وإبطال وجوده ..

والعقل يستطيع أن يصل إلى هذه النتيجة ، فلزمه حجة الدعوة في التصديق بلغيب المجهول ..

والعقل يستطيع أن يعلم بضرورة الايمان لأن إنكار هذه الضرورة غيبة عقلية وليس بتقصية للدين والعقيدة وحسب ، ولا سبيل للعقل إلى الايمان بوجوده كامل مطلق الكمال يصح أن يؤمن به غير لاعترف بضرورة هذا الايمان ولزومه منطقاً - قبل الزومه هدية الضمير

فالوجود الذي يصح أن يؤمن به هو وجود كامل أبدي ليست له حدود ..

والموجود الذي ليست له حدود لا يحيط به إدراك العقل المغمود ..

فما نتيجة للازمة لهذه الحقيقة التي لا شك فيها ..

هي إحدى شيئين . إما إنكار جزاف ، وإما تسلم بحقيقة عمق إدراك العقل

الانكار معناه أن سبب الايمان الوحيد ، يكون هو السبب الوحيد لكل تعطيل . والانكار الجزاف يقع العقل في تقويض ، وهو تعطيل العقل أفضل من كل الانكار

• • •

إن الوجود السرمدى الكامل المطلق الكمال هو الإله الذي نريده بالايقان . وهذا هو حقه في إيمان العقلاء وجوده وديونته

ولكن العقل المغمود لا يحيط بالوجود المطلق الذي ليست له حدود ..

أفقبل العقل إذن : لا إيمان بهذا الموجود المطلق لأنه الوجود الذي يصح في العقل أن تؤمن به ونبحث عنه ، ولا يصح في العقل إيمان بغيره ؟ ..

العقل لا يقول هنا ..

والعقل إذا قال بضرورة الايمان على هذه الصفة ، وهذا الحق ، لم يكن قد أغنى عمله وأبطل وجوده ، بل هو ينتج بذلك غاية عمله ، فهو عقل يؤمن عليه إيمان ..

إن العقل الذي يزيد عليه الإيمان . هو العقل الذي خاطبه القرآن بالكثير . أو هو العقل المؤمن الذي تعبى الثبوت بالتذكير والتبشير ، وهو المشغول أن يستمع إلى نبي المرسل من عدم نبي . فلا مغفرة له بعد حجة الغيب والنبي . وبعد حجة شهادة والتفكير

...

ومع التسليم بهذا خروج الكمال . لا يعرف مثل الإنسان تكليفا غير كيف من بسطته لخصيص القرآن ، فلا معنى للتكليف أصلا إن لم تكن له طاعة وحرية . ولا معنى لحرية من وره زيادة الحق وإرادة الحق . .

أشرة واحدة

خلى إن علماء القرن السابع عشر من الغربيين أسم مطالون بتغيير كتاب العلم من آلاف من الجاه ، وأن تعريف شيء من الأشياء . أنه من عقائد القرون الوسطى كان لرفضه وإعادة بحث لم إعادته إلى الاصطلاح بتداول جديد وأول هذه التعريفات أشدلة تعريف الإنسان حسب موضعه من هذا العالم . لأن الإنسان لم يزل في كل عصر ، وفي كل علم ، وفي كل عقيدة . مقياسا له عداه من حلات هذا العلم ، بل مقياسا للعالم أجمع . ينسب النظر إليه كمثل النظر إلى الوجود بشيء

ولم ينسب النظر إلى مركز الكرة الأرضية من إحرام السابوة . حتى حين إلى كثير من عسكين والجغرافيين أن حقائق السابوات بالأرضين قد تغيرت لأن الكرة لأرضية مركز لسان .

وقد نسب النظر إلى مكان الإنسان من الخبيثة كلها ، فوضعه علماء حيوان بوضع واحد مع طقة الأحياء التي عروبها باسم Primates وهي في القردة من طقات الحيوان اللبون .

وأعجب تصنيف هذا النوع الحيواني قدمت بعضهم بعيد في تقسيمه إلى عصر . وإلى الرجوع بكل عنصر منها إلى نوع من فردة الأول . كما سيجيء في كلام عن آراء المشوقين المتأخرين بالتطور والارتقاء

والذين قلوا به نوع واحد لم يرتأوا في تقسيمه إلى أحصره أو سلالات تكاد - نولا التماسل فيما بينها - أن تعتبر أنواعا مستنة بتركيب أعضائها وعقوف . بل قد بعضهم إن تحارب العلم لم تثبت إمكان التناسل بينها ، ولم تف إمكان التماسل بين بعضها وبعض أنواع القردة المشابهة للبشرية . ويجب أن تشمل قبلا قبل تحقيق من أن سلالات الإنسانية كلها قديمة شريفة فيما بينها . كما يتولد ذكور حيوان يورثه من النوع الواحد بغير عائق لتسير في دور الحيد ودور الخفوة .

والذين قعوا باختلاف العناصر والسلالات ، لم يقنوا بالنبل من فوارق هذا الاختلاف . فهم من كاد يجعل السلالة « آرية » نوعا « سيكولوجيا » يضارع النوع « البيولوجي » في اختلاف وفي قلبية « تفاهم » والتعامل ، و « تناسل » العواطف والأفكار .

وعادوا بعد الحرب غالية الثأية إلى التراجع السريع في هذا « التصنيف » الذي خيل إلى أصحابه قبل حين واحد أنه حقيقة واقعة تستغني بالظر عن البرهان ، وما كانوا ليعبروا هذا الامراع في التراجع لولا بلاء « الانسانية » بعواقب ذلك « التصنيف » الخيالي . أنه التصنيف الذي سيق لعنصر من العناصر أن يستبيح السيادة على الأمم عتوة . وأن يستكثر حق الآدمية على تلك الأمم التي لم يدخلها معه في قرابة « الناس » للناس .

فمن كاد يسماء « ناع » في عصر حصر من عصور « كاجاء » في كتاب « فرن من مذهب » روت » . في الطريقة بين حصر جميع الإنساني اعتداف أو توسع في حصر ، قد قسم « الإنسان » إلى عنصرين كبيرين « حصر » في « غارتين » الآرية » « آرية » و « آريكين » . ويمكن الآخر في « آرية » و « آرية » و « آرية » لاسترالية . وهذا أردنا نزيد من الحصر قد قسمها حسب الألوان إلى بضء : بصرى وحمراء وسوداء وحمراء . ونزيد حصرها فبعلق بها ثلاثين ، ولا يمنعنا أن نجعلهم مائتين إلا صعبا لتفاهم على هذا التجميع .

نعرض هنا أن فوارق العناصر فوارق أسماء وعناوين ، وأن « الإنسان » أسرة واحدة على تعدد أبنائها بتعدد أقسامها واختلاف ألوانها اللغوية التي تطلق على تلك الأقسام .

...

نعرض هنا أن الفرق قد وضع الإنسان - مائة ودين - في موضعه الصحيح ، حين جعل تسميته الصحيح إنه « ابن ذكروتي » وأنه يتسمى شعوبه وقاله إلى لأسرة البشرية التي لا تفضل بين الإخوة فيها عمل لصالح ، وبغير التقوى ..

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعْرِفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَىٰ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝ ﴾
(سورة الحجرات آية ١٣)

وقد نسميهم باصطلاح الأسماء « أما » كثيرة كلها تباعدت بينهم حواطين « ميزت » هم الحدود وتشتت بينهم العقائد واللغات ، ولكنهم قبل هذا الاختلاف أمة واحدة لها إله واحد : هو رب العالمين

...

وإذا كانوا قد تعددوا شعوبيا وقبائل كما جاء في الآية الشريفة . « إنما كان هذا تعدد أقوى لأسباب لاحكام صلة التعارف بينها وتعريف « الأمة » كعب « استمرار » حتمها .. فإن تعدد الشعوب ولقبائل يعدد المساعي والحيل لاستخراج كنوز لأرض ومقتضاها أدوت الصناعة ، على حسب النوقع والأزمنة ، وعلى حسب مسكنات وتعدادات التي تتفق معها ضرورات العيش والتدبر عن الحجة فتجده عن هذا ما لابد أن ينجم عن من تعدد الحضارات وأقائين الثقافة ، وتزداد « الإنسانية » عرفان « استمرار » شعبها ، وعرفان « بقائنها » ، واتقيا فيها بينها ، وتقسطو إليه سطريرا « تحب » من الشرائك منافعتها وسريان الضرر من قريبها إلى بعدها :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَلْقَ الْبَشَرِ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ ۝ ﴾
(سورة النور آية ٢٢)

وهذا ما حكمه القرآن في وحدة بني الإنسان ، وفي تدعيم هذه الوحدة ، بما حسبته الناصر المنجبل بابا من أبواب الأفران والتباين ، وهو تعدد شعوب وقبائل واختلاف لغات ولألوان .

﴿ وَمَا كَانَ أَكْبَرُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً ۚ فَخَلَقُوا ۚ وَلَكِنْ كَلِمَةً ۚ فَكَتَبَ مِنْ رَبِّكَ نَفْسًا ۚ يَبْدَأُ فِيهَا بِمِثْقَلِ ذَرَّةٍ ۚ لَهَا فِي خَلْقِهَا حُسْبٌ ۚ ﴾
(سورة النجم آية ١٩)

...

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً قَبْلَ أَنْ نَبْعَثَ إِلَيْكَ الْفُرْقَانَ مُبَيِّنِينَ لِلنَّاسِ الْبَيِّنَاتِ﴾

سورة بقره آه ١١٣

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ جَعَلْنَا النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾

سورة هود آه ١١٨

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلْنَا الْإِنْسَانَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَكَانَ شَيْئًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾

سورة المائدة آه ٤٨

تَسْتَقْبِرُوا أَخْيَرًا

إن هذه الوحدة في صلة الانسان مشدودة الازر بانحمة بين الناس كافة في الصلة بالله - ربهم رب العالمين - الذي يسوى بينهم ويدينهم بالوحدة والانصاف ، ثم لا يقضى بينهم فيما اختلفوا فيه إلا بقسط العدل ، أبهم أحسن عملا . فرب هذا القدر واستبان الخبايا

﴿وَلَا تُهْكَرُ الْإِلَٰهَ وَاحِدًا إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾

سورة النقرة ١٦٣

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ الْإِلَٰهَ وَاحِدٌ قَدْ كَانَ

رَبُّوهُمُ الْإِلَٰهَ وَاحِدٌ فَلْيَعْبُدُوا إِلَٰهًا مَّوْحَدًا وَلَا يَشْرِكُوا بِهِ عَمَلًا مَّوْحَدًا﴾

سورة كهف آه ١١٠

﴿إِنْ هَدَيْتِهِمْ أَنَسْكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنْ تَبْكُوا لِعِبَادِهِ﴾

سورة الأنبياء آه ١٩٢

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ الْإِلَٰهَ وَاحِدٌ قَدْ كَانَ رَبُّكُمْ مُسْلِمِينَ﴾

سورة الأنبياء آه ١٠٨

وتقد كان من الحق في ذمة العلم أن يقررت علماء المقابلة بين الأديان طويلا . عند هذه المرحلة العظمى في تاريخ العقيدة ، وفي تاريخ الفكر ، وفي تاريخ القيم لأحلاله . بل في تاريخ الحياة الانسانية من مظهر في ظلمات الماضي المجهول . في هذا الأوج السعق الذي ارتفعت فيه بعد ألوف السنين ، وما كانت لتتفتح فيه بعض ولا عقيدة غير عقيدة في رب واحد هو رب العالمين .

بها لم تكن كلمة في موضع كلمة ، ولم تكن صفة من صفات القديسين - بل من صفة مثلها ، ولم تكن رمية من نيوروم على لسان ناصك فاعل يقول في تسبيح تعبد كيف يقول

ربهم تكن لغة من لغات سبعة . هم ينصرون المشرك في سبعة من سحر وكلمة . ثم لا يأتى أن تعود في جنبهم كما تعود في أممهم . على غير معنى . وكانت كذلك . وت في غير كنهات والأدهم . وه بين من يقصد - أو لا يدع - إليها أن يعيده مرتين ..

وكيف كانت قبة يستقبلها الانسان على سواء لم يكن بالغه لوم يعتدل . وفي مضجع الطريق ، وهيات - على غير ما ه القبة - أن يتنظم للانسان مسلك معقول إلى الرشد والضمير .

إن قيم لأعمال والأحلاق . لا قوام لها مع الايمان برب هو رب هذا المسمى أو هذا الشعب ، بين من خلق الله من قبيل لا يختارهم وشعوب لا ينظر إليهم

وإن هذه القيم لغز عند إدمس يحيق بهم الذب وما الترفوه ، ويهبط عليهم لغز . وما صعدوا إليه يتقبون بين القيمة والعملة بغير جبرية من إثم ويعبر سعادة من توب ويعبر بية للإسامة ولا تبة للكفر .

إن العالم الاتساق كخمة غير مفهومة عد من يدين رب غير رب العالمين . وإن قيم الأخلاق كل جزاء حين تنفطر الأسباب بين حسنات والسيئات وبين غواث ومغيب . وإن الانسانية - الجذمة شيء لا وجود له قبل أن يوجد - تأسس

وإنما توجد الإنسانية الواحدة ، ويساوى لسان والانسان مع الإله الواحد
الأحد ، وبالنسبة إلى العبد أجمع . أفضلهم عنده أفعالهم وأصلحهم
وأسبقهم إلى الخيرات .
وما التقوى ؟ ..

تقوى كسرة واحدة تجمع كل وازع برز صغير .
وأقدر الناس على أمانة التقوى ، أقدمهم على الموص بالثبته . وأعرفهم
بموضع المعروف والذكر والباح . ويحظون
والانسان التي مره أخرى هو الانسان ، انسان .

من هذه التقوى التي يمتثل بها كل نفس ، إنسان عند رب العرش ؟
لو شاء فلاسفة الأخلاق لسموا ما هي هذه تقوى . وعلموا حقاً أن موازينهم
جميع لا تحسن الترجيح بين فضل وبين قلة رة كما تحسن هذه
« تقوى » التي يحبونها « تسخنة » من تسبيح بعدد ، ويخيل إليهم أنه مثل من
أن تنفع العالم المحقق في مقام الموازنة والتفضيل . فليس بين فضل ومنفول قط
من رجحان غير رجحان الأفضل إلى القدرة على الثبته . بما صاب لهم من أوان
الشدت .

في موضع الرجحان للعالم على الجاهل ، وبشيد على لغاصر ، ونذكي عن
الغنى ، ولقدار على العجز ، وسهيد على عدم ، وهدجود على عترة .
ولعمري على الفير ، ونسند على حد ، ونسحة على اعكوه . ولصاحب اخلاق
المكبي على صاحب اخلاق الهزيل . ولكل فن - بالإنذار - على كل مفصول
وب من ميزان آخر يرفع فلاسفة الأخلاق في دائرة من هذه الخصال . ولا حذفه
في صفحة غيرها . بل في أعقبه وأرجحها من موازنة التفضيل .

قربت « جيلة » الانسان مائة في تفضيل لعماء على الجهلاء أو الراشدين على
تقصير . أو الأذكياء على الأغبياء أو غير هؤلاء من غير هؤلاء من الناصين على
مفسرين . فإن الله لم يفضل الجاهل بالعلم ولا م . . ولكنه قد يوجب منفولاً عنه
تقوية بينها في باب من أبواب خيرة أو رعة من نزعت المفطرة ، وهكذا كل

راجع وكل مرجوح بغير المال أو النسب أو الخلقة والعادات ولكننا إذا حكمنا بأن
إنسان يفضل إنساناً بقدرة على تحمل البعات ، فهو الراجح لا وراء في كل ميزان
من موزن المفاضلة بين بني الإنسان ، وكل قيمة تحسب للإنسان فهي داخلية في
هذا حساب ، فإن جاز أن تحمل ويقى الإنسان بعدها أهلاً للرححان بالبعات
فهو ميمنة حقاً ولو كان من شأنها في غير هذا الإنسان ..

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ سورة الحجرات آية ١٣ .

صدق الله العظيم . إنه هو القسطاس الذي يشي « للإنسانية » حقوق
المساواة بين أبنائها دين وعلم ونسفة ونزيرة وإلهاماً من الوحي الإلهي وتمحيصاً من
البدية الإنسانية

يمكن الوحي الإلهي في هذه المساواة أنها قد شرعت للإنسان شريعتها حقاً من
حقوق الخلق والكون ، وه تشرعها له وسيلة من وسائل احكم وإجراء من
إجراءات « السياسة » . إن الخطر خطي خيفة من ثورة النفوس وتنافسها على عدد
الأصوات في معارك لا حجاب . . فإن أحداً ممن نحيهم القرآن تلك المساواة لم يطلبها
ولم يكن ليناطق أن تنزل عليه من ربي رب العالمين . ولكنها لم تنشأ في حضارة
من حضرات العالم القديم أو الحديث إلا كان وراءها حيلة أو وسيلة سياسية أو
مراوعة فليق وتسكين ، وبلا حروب أثينا واسبارطة ، وحروب رومة وفارس ،
وحروب الأمم في القرن العشرين ، ما مع « ديموس » شيء يسمى الديمقراطية ولا
رضخ الديموقراطيون ، المتأخرون شيء لذوى المول والمذلل أو لذوى الألوان
المتنوع للمصانع والمعسكرات . ولا سمع العالم بمساواة بني آدم لا فضل فيها
الأحد منهم على أحد بغير العمل الصالح وتقوى الله

آدم

نعم آدم عليه السلام في القرآن هي قصة لإنسان الأول..

حق من قرأه .. وارثه بالخلق سوى إذ منزلة العقل والإرادة ..

وتعلم من الأسماء فضلا من العلم مئذ على خلقت الأرض ، من ذى حياة وغير ذى حياة . .

ونعمي ه أن يكس فضله بحمله ، وأن يكب جهده عه لأرادته وانتصارا
لغضبه عي جسده .

وَبَقِيَ هَذِهِ النِّشَاطُ لَأَدْمِيَّةٍ يَسْتَوِيهَا الْقُرْآنُ وَ هَذِهِ الْآيَاتُ :

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ صُنْهِ ۖ (سورة القمور آية ١٢)
 = لَقَدْ عَلِمْنَا الْغَيْبَ وَالْهَمْدُ لِلَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۖ (سورة النحل آية ١٦)
 خَلَقَهُ وَبِمَا خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ طِينٍ ۖ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِمَّا مَوْجُودَاتِ
 الْغُسْنِ ۖ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ۖ (سورة النحل آية ٦ - ٧)

في سبلها . فنحن قد ذهبنا بالتصور غاية مذعبه لنقف عند قصة آدم والملائكة وما في الأرض والسماء من خلقة ذات حياة أو غير ذات حياة ..

وعليها أن نؤمن بالتصور مدى آخر ، وراء هذا المدى من تاريخ الإنسان ، وذلك هو المدى الذي نطلع منه على « سياسة الخلق والتكوين » على كل صورة من أصور مرة أخرى في السهل العتل ، أو في امتحان الغرض والتقدير

ننا نعلم من سياسة الخلق إن الأجسام الحية نشأت على الكرة الأرضية قبل نشأة الإنسان ، فكادت أن تلغ ملح الجبال لصغار وثقل بعضها وزنا حتى أنزل على مئات الأطنان ، ثم فُتت لأنها قصرت عن ملكة لتدبير أحي تروص بها هذه الأجسام الضخامة . ولما نعلم شيئا بنير اسماع والاهام عن خلقت الخلق التي تفرزت فيها العقول عن الأبدان ..

ولعل الانساني يأتي أن يصدق إن هذا يكون حلو من معدن الحس إلا أن يست عرضا في حزه من مادة الأرض . بعد نشوء الإنسان

أقرب إلى نصيبته . ولا نقول أقرب إلى إيمانه وكفى - أن سياسة الخلق والتكوين نصرفت في مقادير العقول ، كما نصرفت في مقادير الأبدان إلى عنة ما تلعه من ضخامة يعجز عن العقل وعن فضاء المميز .

س سياسة الخلق التي أدت للكائنات العقلية في عالم الروح أن تعلم نداهما من الرق في معارج الحية ، وأن تتلقى الأمر بالسجود للقيمة الجديدة التي تخرج عنها أسرار الغيب ، ويودعها خالق هذا الكيان المرسوم بالإنسان ..

ومن بديهة الإيمان أن تدع للدين حقه في تبليغ هذه النشأة إلى المزمير . نيب ، وأن تدع للعقول حقها فيما وسعت من علم . وفيها وسعها من تعليم .. إن النشأة الأدبية في القرآن هي طريق الحياة من الأرض إلى السماء ، أو هي طريق الكائن الحي من المادة الصماء إلى الخلاق الحكيم

ولأياي القرآن عن مؤس به أن يرسم مسلك الحياة من انبدا إلى المصير عن هذا الطريق الحق الين : فنه نرى الجادة في كل مكان يردعها إلى الأرض ولا ينفعها عن الله .

الكتاب الثاني

الإنسان في مذاهب العيسم والفكر

عمر الإنسان

نشأ هذه التصورات عن الإنسان في مذاهب العلم والفكر بفصل عام عن عمر الإنسان في هذا العالم . لأن تقدير الزمن الذي مضى على ابتداء حياة النوع الإنساني مرتبط بكل بحث عن أصل الإنسان في جميع المذاهب . ولا سمح مذهب النشوء أو التطور . وهو أول مذهب يعين البحث فيه واستقراءه بقابل عنه . تأييدا وتفنيدا . في تقرير مكان الإنسان من هذا الوجود ومكانه بعد ذلك من عامة الأحياء . ويرى أن هذا المذهب أن المذاهب التي يتبعها بحث هذا . لأنه أخرى أن يسمى المذهب المذاهب . وإن يدرس على سعة نفعه من حاد . وقد أوجب الواحد الذي يقصد عن موضوعه . فليس . فوه . مذكور بعهد وينتشر بين أصحاب الدراسات حتى عند هؤلاء بحسب أنهم مطلوبون . عدة الطرق في موضوعاتها المتضاربة . فوه . ويعتبر أنهم ليس بشر مذهب صريح . بل هو . من تطورهم ونظائرهم . على تصور الأدب وتفسيره لسياسة وعن أبواب شتى من الدراسات . يقال فيها اليوم غير ما قبل بالأسس تعال القوانين أو النظريات التي حدها . نشوءيون .

ومبسط القول في هذا المذهب على وجه خاص عن قدر استطاع في حيز هذه الرسالة . لأنه . من كل فرض من الفروض - دعوى في قضية لإنسان يستمع إليها ولا تنس كل الأهمال . ولو اعتقد الناصر فيه - كما نعتف - أنه تقوم على آراء لا تلزم من النتيجة التي وصل إليها النشويون بزم المذهب . ولكن معلقة إلى حين .

ولنبذة الكلام فيها بر عن عمر الإنسان بتقدير العلوم المعاصرة . ولا تناقض بين شيء من وبين شيء ما ورد في آيات القرآن .

• يوجب القرآن على المسلم مقدار محدودا من حنين حتى الكون أو خلق الإنسان . ولا نعلم . ديانة من الديانات الكبرى التي يؤمن بها ببناء الحضارة عرضت تاريخ الطبيعة غير لديانتين إبراهيمية واليهودية .

الديانة البرهمية لا تقدر عمر الكون . أو عمر حياة . تقدر محدودا من

السنين . لأنها تقول بالدورة الأبدية التي تتكرر فيها حياة الإنسان مع حياة الكون بغير حل معروف في البداية أو النهاية . وعند البرهميين أن الكون فلك كبير . يتم دورته المتكررة مرة في كل ثلاثة وستين ألف سنة . وقد يزداد هذا تقدر أو ينقص في تفسيراتهم الدينية على حسب المقادير المضاعفة عندهم للنورة الشمسية . وهي عندهم مثل صغير للدورة الكونية الكبرى . كلما انتهت دورة بدأت دورة أخرى من دورات الوجود المزمع عودا على بدء إلى غير انتهاء .

• أما المصادر اليهودية . فهي على حسب تحقيق الفقيه الكبير . جيمس يوشيه . المؤرخ سنة ١٨٩٦ . تدل على ابتداء الخلق في شهر أكتوبر سنة ٤٠٠٤ قبل الميلاد . وقد شرح أسانيده التي بنى عليها هذا التقدير في كتاب ضخمة سماه المسجلات القديمة والعهد الجديد (Annales Vetus Novi Testamenti) .

• وضيف هذا لتاريخ . في نسخة التوراة التي ترجمت عن سب . في جيمس . وبها مشيها لتاريخ الحوادث المذكورة في متونها .

• وظل هذا التاريخ معتادا في طبعات التوراة المقولة عن هذه النسخة إلى العهد الأخير . ثم أجمع شراح الكتاب العسريون . يهودا وسبحين من تقدير . بين الأيام التي وردت في صدد الكلام عن الخلق بمقادير غير تقدير السنين والأيام الشمسية . وشهدوا إلى أن اليوم الشمسي وإن السنة الشمسية تساوي مدة دوران الأرض حول الشمس مرة واحدة . فلا يمكن أن يكون اليوم من أيام الخليقة السنة يوم شمسية لأن الشمس نفسها خلقت في اليوم الرابع كما جاء في الاصطلاح الأول من سفر التكوين .

• وقال الله : لنكن أنوار في جلد السماء لتفصل بين النور والليل وتكون لآيات وأوقات . أيام وستين . وتكون أنوار في جلد السماء لتتبرع عن الأرض . وكان كمنبت . فعمل الله النورين العظيمين : النور الأكبر لحكم النهار . والنور الأصغر حكم الليل . ولتجوم وجعلها الله في جلد السماء لتتبرع على لأرض ولتحكم على . والنور وتفصل بين النور والظلمة . ورأى الله ذلك أنه حسن . وكان مساء . وكان صباح يوم رابع .

وانفصى القرن السابع عشر والثامن عشر دون أن يمرض لطعام الغرب ، من مباحث الدين أو العلم . ثم يدعوهم إلى تمديد عمر للتخلية يزيد على ستمائة سنة بحساب السنين الشمسية ، ثم تتألف الكشوف عن ضواهر الطبيعة كيفما تناولتها العلوم الحديثة ، فضاءت هذه القرون الستون حتى أصبحت كلمة البصر الحافظة بالقباس إلى أعمار الكائنات السماوية والأرضية ، بعد أن عرف العلماء حساب الزمن بالنسبة الضوئية وتحقق من النظر اليقين إلى بعض الكواكب أنهم يرون الآن بعد أن مضت على انطلاق شعاع منها ملايين من السنوات الشمسية ، وتبين من تحقيق أعمار بعض الأشجار أنها ثبتت قبل ميلاد المسيح وقبل دعوة موسى الكليم وإبراهيم خليل ، وتبين من هذه الكائنات المتحجرة أنه كان يسكن على الأرض قبل مئات الآلاف من السنين ، وقامت تسميات العالم في قياس أعمار هذه الكائنات على تقدير محقق لا غل لها عن قياس ساعات حركة الزمن أو ساعات رابعة ولديته . ولأنه يكون هذه الساعات على بعدة أخذ من سرعة الإشعاع معدود أو ممدد . وقت اللازم للحوم حاسر ، وأنت في من مديد عن تصحيح تسميات عليها . أصبح العالم بمقدار الزمن أو الماء ومشار الوقت اللازم لانسياب في صدوقه قياسا لساعات النهار والليل . وتما يصحح علم بحركات الكواكب قياسا للسنين والأيام . وقد اشتركت الأمم جميعا في اتخاذ مقاييسها لتفسير أعمار الكائنات فقامس النباقي عمر الشجرة بحركات جذوعها ، وقاس الضمير أعمار البحار بمقادير الملح الذي أفرغته الأنهار فيها . ودرس عالم الطبقات الأرضية أعمار الصخور بتحول المعادن أو استقرار الرواسب . ثم ناشع العصر أو بالأحرى استحضرة من بقايا النبات والحيوان ، وكلها مديد معقولة توغل بأعمار بعض الكائنات رجوعا إلى دهور محسوبة ثبات الألف من سنين . وتبين في التمام حتى تحسب بمئات الملايين .

...

وأحدث المقاييس العلمية التي تقاس به عصور ما قبل التاريخ مقياس الكربون نسمي بكربون (١٤) تميزاه من الكربون (١٢) نسمي بمقدار وزنه الذري . من العالم الأمريكي (ويلارد ليبي) Willard Libby صاحب الدراسات

المأثورة في الصيغيات الذرية ، وجد - قبل منتصف القرن - أن نصف ذرات هذا الكربون تتحلل في الأجسام الحية خلال خمسة آلاف وخمسمائة وثمان وستين سنة . يعمل فيها حساب فرق التغير بنحو ثلاثين سنة إلى الزيادة أو النقصان ، هذا جمعت بقايا العظم أو الفحم الحجري ، فمن الممكن وزن ما فيها من كربون (١٤) وتقدير الزمن الذي انقضت فيه حياة الكائن الحي الذي تحققت عنه تلك القايا على حسب المقدار المتحلل من ذلك الكربون . فإذا كان هذا المقدار نصفا ، فقد مدت ذلك الكائن الحى قبل خمسة آلاف وخمسمائة وثمان وستين سنة ، وإذا كان دلت المقدار ربما قد انتهت حياته قبل نحو أحد عشر ألفا ومائة وست وثلاثين سنة . ويزيد عدد قرون كلما نقصت نسبة البقية الباقية من الكربون (١٤) بالمقابلة بين وبين الكربون (١٢) مع ذلك الفارق القليل الذي يحسب فيه الحساب خطأ تقديري .

وهذه مقياس الكمية التي تضبط حساب القرون كما يضبط حساب الأيام والليالي بالساعات الزمنية وإليه - قبل تاريخ الإنسان على الأرض وإحدا إلى ثوب لقرون بدلا من اعشرات أو آلاف ، ووضع علماء الطبقات والحفائر مقادير الأعمار المتفاوتة لكل طبقة من الطبقات الأرضية وجدت فيها بقايا الأجسام البشرية وقديرا للطبقة الحجرية لثلاثة أدوار بين عليا ووسطى وسفلى ، يتراوح تاريخها بين خمسة وسبعين ألف سنة ومائة ألف سنة ، وتنسب إلى الطبقة العليا بقايا الإنسان التي وجدت في أقاليم عربية من القارة الأوربية ، وإلى الطبقة الوسطى بقايا الإنسان التي وجدت في أراسط القارة . وأقدم من هذا بقايا الإنسان التي وجدت في القارة الآسيوية بين الصين وبلاد السلايا ، ومثلها في التدمر أو أقدم منها بقايا الإنسان في أقاليم الجنوب الأفريقية

وأخر البقايا الإنسانية التي وجدت في القارة الأفريقية جمجمة ، وجمجمة الدكتور « ليبي » Leakey في شهر يوليو سنة ١٩٥٩ - ووجد معها بقايا حيوانات يظن الدكتور أن صاحب الجمجمة كان يصطادها لطعامه ، ويستخدم في مباحثها سلحة حجرية وجدت تارده عن مفره منه ، وقد استغرقت هذه الحفائر تحت نجر

«أولدفائ» بشرانياً وسمى هذا الإنسان باسم علمي معاه الإنسان الزنجي Z. nianthropus ولقبوه في الدوائر العلمية بلقب «كاسر لجوز» لضخامة فكهم وضروسه ، ويقدرون تاريخه بنحو ثمانية آلاف سنة على حسب قياس الزمن بتلك المقاييس المتعددة ، ومنها حساب زمن التححر وزمن تكوين الطبقة ورمز التطور و تركيب العظام وزمن البقايا التي تخلصت من عظام الفك والأسنان .

وليس من الحق أن يوغل التاريخ في عدم إلى كل ثنت الألوف من السنين ، ولكن الحق أن إيماننا إلى تلك لدموركله إنما هو أقدم مما ليس بالأمر المستغرب في قيمة الزمن أو أية أمور الحياة الإنسانية ، بعد وضوح الحقائق الثابتة من قدم تاريخ الخليقة من ظواهرها الأرضية وثمراتها السابوية على السواء .

ونحقق كذلك أن الإنسان القديم الذي بنت عليه تلك البقايا ، كان يستخدم آلات الحجريه ، ويستعين في كفاح أعدائه من الحيوانات الضارية بصعب من تلكه لم يكن معهوداً في حيوان منا ، فهو في قده جهود مبر بالعقل واسطق وهما صفات إنسانيتان لا تفصلان عن مستخدم لآلة ولا عن خاصية المبرزة للحيوان . نحن من اعتدال القامة ومطاوعة اليد للآلة في حالات شتى ولوقوف - ونولا ذلك لنا استطاع الإنسان أن يستخدم السلاح وأن يصمم لإصابة الحيوانات الضارية من بعيد . . .

أما لانتسان في مجتمعات حضارة فلم يكشف ، بعد - أثر يدل على تاريخ له قبل عشرة آلاف سنة أو نحوها . ويعني باسمه - لحضارة ذك الإنسان الذي عرف الشريعة ونظام المعاملة وسحر الحيوان كم سحر العناصر الطبيعية في مصالحه المشتركة . وقد وجدت في وادي النيل آثار الإنسان المقيم الذي كان يستخدم الأدوات الحجرية ، ويعول على محاصيل الأرض في تديين صغره وأسباب معيشته ، ولكن المقص عليه أن هنا الإنسان لم يكن يعرف الكتابة ولم تكن قروشته على الحجر من قبيل الرموز المصطلح عليها لنقل الأفكار وتسجيل الوقائع ، ولكنها تقرب إلى تعلم السحرة أو إلى أشكال الزينة ، وربما - على هذا - لتعتبر مقدمة لآلة منة المزايا التي تحقق الصلاح وتكمل شحجها ندواء في ميدان النزاع . . .

وليس لنا أن نأخذ مأخذ البقن بروايت الأقدمين عن ما فهمهم البعيد في حياة الثقافة والحضارة الرقيقة ، ولكنها روايات لا تهمل في صدد الكلام عن تاريخ الإنسان وليس لا كذلك أن ننفضها بغير دليل .

كان هيرودوت - الملقب بأبي التاريخ - يعيش في القرن الخامس قبل الميلاد ، وهو يروي في كتابه الثاني عن كهنة الفراعنة أنهم يقدرون تاريخ الدولة من عهد ملكها الأول بثلثمائة وواحد وأربعين جيلاً ، أي بنحو أحد عشر ألف سنة على حساب ثلاثة أجيال لكل قرن واحد ، ويعتمد بعض الباحثين المحدثين أنه تقدير غير مبالغ فيه ، وأن موقع بعض المياكل تدل على انقضاء زمن كهنة الزمن قبل عصر هيرودوت في مرابة محكمة سمحت بملاحظة الفرق بين السنة الشمسية في القويم القديم وهذه السنة الشمسية في بقومتنا الحديث ، وهو فرق يبلغ ستة كاملة كل ألف وأربع مئة وإحدى وستين سنة ، ولا سبيل إلى إدراك هذا الفرق في أية تمثيل الرسم والتسجيل وتعمر عن مراقبة هذه الفروق دوراً بعد دور في تاريخها الطويل (١) .

. . .

وما يذكره ، ولا يهم ، في صدد الروايات المتواترة عن الأمم لداوسة رواية أفلاطون عن القارة المفقودة التي سماها القارة الأطلسية ، وذكرها في كتابين من كتبه المخطوطة هما كتاب « تيمائوس » Timaeus و « كريتياس » Critias وروى من أخبار أهلها أنهم تقدموا في الحضرة تقدماً لم يدركه أحد من بعدهم ، ثم غصت بأهلها تحت الأرض على أثر زلزال من زلازل المصير الغابرة التي يظهر من أخبار الأقدمين أنهم كانوا يحسبون من عوالم الطبيعة الدائمة أو عوالمها الدورية ، وقد بحث طلاب الأسرار في جهال لاسمى المدلول عن موقع القارة المفقودة فرجح عندهم أنها كانت في موضع المحيط لأعلى بين شماله ووسطه ، وأنها زالت في إحدى النكوارث الكونية التي قدراً وقعها سنة ٩٥٦٤ قبل الميلاد فلم يبق منها إلا بعض الجمر البتائية .

(١) يرجع إلى كتاب ميوكوفسكي Veikovsky عن العوالم المصاعدة .

وقد كان أفلاطون أحد رواة هذه الأسطورة ، فلفت من عنابة الاخلاف
اللاحقة ما لم تلقه أساطير عصره ، وجاء فرنسيس باكون فيلسوف العلوم التجريبية
بعد القرون الوسطى فسمى أحد كتبه باسم «أطلسية الجليدة» ، ووصف فيه العلم
الجليد كما يتجمد

إلا أن الغالب على المحدثين أن يجمعوا في هذه الرواية منهجهم «التقليدي» في كل
رواية فخلقت من المصور الأول وانتقلت إلى مصور الأخيرة مع أساطير
الأقدمين ، فحسبها جملة واحدة في عداد تلك الأساطير ، وهو منح كانت له
مسوغته القوية في مرحلة الانتقال بين طموت القرون الوسطى ومطالع الكشف
والتحقيق عند أوائل القرن التاسع عشر ، ولكن استمرار عصر الكشف والعجربة
العلمية خليف أن يوطد الاندماج على م الأمان ويسمح بمباحث بالتردد في الانكار كما
سمح به من قبل بالتردد في القول : بل بالنسبة إلى بعض غير متحيزين ولا موازنة بين
مسوغات التكذيب ومسوغات التصديق ، ولعل للكشوف الكثيرة التي تسبقت
خلال القرن التاسع عشر وتبين أنها أن روايات القدمين لم تكن كلها من قبيل
الأساطير قد أفتت أكثر الباحثين بأن الرافض بغير برهان أصري يبحث من القبول بغير
برهان ، لأن الذي يحرم برفض خبر قديم إنما يحكم بالاستحالة على المعكذات الكثيرة
التي تجر ولا تمتنع في العنود ، وخير منه - عقلا - من يقل شيئا ممكنا ، وإن لم
يقم البرهان على وقوعه فعلا كما وقع غيره من الحكايات .

وإذا حق لهذه الأسطورة أن تشجع لها رواية أفلاطون ، فقد يكون من
شفاعتها الحديثة التي تركز تلك الشفاعة الموقرة أن محيط الأطلسي بنيء الناحيتين
المحدوتين عن صدور واسعة يدل عليها تماثل الخطوط بين شواطئه الشرقية وشواطئه
لغربية ، وقد تدل عليها أغوار القاع وسلاسل التوابع المتناهية على امتداده طولاً
وعرضاً بإزاء قارات العالم القديم والعالم الجديد . وهذه كلها كشوف متأخرة لم
يعرف عنها الأقدمون شيئاً حين تناقلوا أخبارهم عن قارتهم المفقودة

عل أن الكشف الأثرية في السنوات الأخيرة قد خرجت بأساطير الممارات
المفقودة من عالم الأسرار إلى عالم الآثار وضاعتنا باسم قارة جديدة في محيط آخر غير

محيط الأطلسي ، ولكنه يقابله في الموقع ويشبهه في الظواهر والأغوار ، وتلك هي
قارة موه Mu التي ألف عنها الكولونيل جيمس شرشوارد chuchward كتابه باسم
«قارة المولفقودة» ، وه أبناء موه وروى فيها أخبار حضارات سابقة لمصور التاريخ
يرجع بها قدما إلى أكثر من عشرين ألف سنة قبل الميلاد . ويميز دعواه برموز
وإشارات يفسرها بمعانيها الغريبة ، ولا يفتح باعتبارها من أشكال الزينة ونقوش
الباء ، لأنه يرى أن الرسوم الهندسية لا تبلغ هذا المبلغ عند أمة تجهل الكتابة ونقل
الأفكار بالعلامات والخطوط

• • •

وعلى عهدة المؤلف نصل خلاصة كتابه عن القارة المفقودة مقتبسة من مقدمته
لكتابه الآخر عن «أبناء موه» ولها يقول ما لحواه

«إن قارة موه كانت قارة واسعة تقع في المحيط الهندي بين أمريكا وآسيا ،
وبقع وسطها إلى الجنوب قليلا من خط الاستواء .. ويقدر طولها من الشرق إلى
الغرب بمئة آلاف ميل ، وعرضها بين الشمال والجنوب بثلاثة آلاف ميل ، وقد
دمعها زوال عيب قبل نحو اثني عشر ألف سنة فانتلفتها جيج المحيط وعاص معها
إلى قرور نحو ستين مليون إنسان ، ويستدل على وجود تلك القارة بالآثار الكتابية
والروايات المتواترة التي يتناولها أناس من أبناء الهند والصين ويورمه والتبت وكمبوديا
وأواسط أمريكا ، ومنها نقوش ورقوم شوهدت في جزر المحيط الهادي ، وتبينها
روايات الاغريق والصينيين الأقدمين وتتوافر حولها الأساطير بين بقاع الدنيا المتراصة
عن أرجاء الكرة الأرضية . وقد خط الانسان خطواته الأولى في سبل القدم والمعركة
قبل نحو مائتي ألف سنة ، وانهى قبل نكبة القارة بالزلزال إلى شأ من الحضارة لم
نصل إليه حتى الآن في حضارتنا الزائنة ، لأن حضارتنا لا تدعى لها عرا أطول من
خمسة آلاف سنة وهي مرحلة قصيرة بالقياس إلى أشأ الذي يدركه الانسان العاقل
بعد ممارسة الحضارة والصناعة مائتي ألف سنة ، وليست حضارات الأمم الشرقية
العريقة من الهند إلى بابل ومصر إلا ومضات الرماد المتخلف من حضرة تلك القارة
لغربية ، وقد فسر المؤلف ما عثر عليه من الرموز والرقوم واعتمد في بعض تفسيراته

على كتمان المخاربه العريضة وعلى حلول الطلاسم التي انتهى إليها قراء الكتابات
لقدية على آثار المغرب والمشرق ، وسما آثار المايا وآثار المراعنة ويقول المؤلف
تبع لم يأت برأى من عنده في كل ما يسط القول فيه من أخبار تلك القارة ،
ولكنه رأى ما يراه كل قارئ لتلك القروش والرقوم يتقل ضربة حلها كما
شرحها مشفرة بأسيدها ، بالأدلة التي تؤكد معانيها ، وقد نسب له من تلك
الأدلة أن بعضها يمتد في الأرض المضيئة إلى سبعين ألف سنة . ولكن الآثار
التي نقلت من قارة موها نفسها جد قليلة ، وعاية ما أمكن لتطور عبه من
الآثار المتصلة بها أثاران رمزيان مصوغان من البرز ، يرجع تاريخهما على الأقل
إلى نحو عشرين ألف سنة إذا كانا من مخففات الحضارة التي قمت على أرض
القارة الآسيوية بعد الزلزال وقبل الطوفان وقد يرجع إلى أقدم أحد من ذلك
جدا إذا كان من مخففات موها التي نقلت إلى بلاد لقارة الآسيوية .

• • •

ولخديدي قصة هذه القارة كما رواها مؤلف كتابي القارة المفقودة وأبناء موها
أنها تحدث عن الإنسان ، المدين ، في تلك العصور السحيقة ، وأن تصف لنا هذا
الإنسان مخلوقا مميزا بين جميع المخلوقات ، وتربط بين خاصية لتدين وبين هذه
الحرية التي تترده بين أنواع الأحياء ، على خلاف المفهوم من مذاهب التطوريين الذين
جعلوا الإنسان نوعا من هذه الأنواع بغير مزية تفصله عنها سوى مزية الأرقاء ، وقد
ألم المؤلف بمشاهات عارضة بين مجمل الكلام من الخلقة ، وعن نكبات الإنسان
في العصور العابرة ، كما جاءت في الآثار الأولى وفي كتب الأديان القديمة ، وخفية ما
تقوله من توكيدات المؤلف ومخبراته مما أن مسألة الإنسان المتحضر قبل عصور
التاريخ ليست مما يهمل في سبيل مرض التاريخ النوع الانساني ولكن الإنسان من
كتب الدين

الإنسان ومذهب التطور

المتلون بالتغير لفرقتان : منهم من يعمد تطبيقه على الكون كله بما اشتمل عليه
من مادة وقوة ، ومنهم من يقصره على جزء الكائنات العضوية التي تشتمل على
النبات والحيوان والإنسان . ولا تحيط بما عداها من الوجودات غير العضوية ..
والتدنيون . تطور الله يواجهون مسألة الخلق ، أو مسألة الإيمان بخلق ، في
كلامهم عن الله وعن القوى السدرة له من حارجه أو داخله . ولا مندس ضم من
العرض هذه القوى برؤى من الآراء ..

هاتين بقصديتين التطور على الأحياء ، يرجعون في تحليل تطورها إلى عوامل
صعبة وما تشتمل من مؤثرات البيئة والصح وموارد هذه وسائل الخصول عليه ،
ولا يضطرونهم القول بهذا الحق إلى تعرض . وراه هذه العروس الطبيعية - نبات أو
كبر .. فقد يكون غرض الطبيعة في مدحهم حكمة لقوة عالية فوق طبيعة .
تودعه ما تشه من القوة والحواميس ، ولا يتناقض القول بأنهم الطبيعة عندهم
وتقول بما رواه الطبيعة . على حسب المفاهيم الخيالية أو المذاهب الفلسفية .
أما تعميم النظر على الكون كله ، فلا بد أن يسبق السؤال عن القوة التي تملك
تسير هذا الكون من لأول إلى غير نهاية ، ولا بد لهذا بتعميم التطور من اتصال في
مسألة البداية ونهاية .. وهي لا تفصل عن مسألة الخلق والخلق في جملتها .
فإذا كان نعت الأحياء يرجع إلى عوامل البيئة الطبيعية ، فدعا خارج الكون كله
يرجع إليه تطور الكون منذ البداية الأول ؟ وكيف يتفق القول بالتطور والقول
بالبداية التي لا أول لها ولا آخر إذا قيل أن الكون موجود بلا ابتداء ولا ختام ؟
إن أشهر التقديرات بالتطور العام هريوث سينسر (١٨٢٠ - ١٩٠٣) الذي عرف
التطور بأنه انتداب من البسيط إلى المركب ، وقول من تطور الحياة أنه توفيق دائم بين
مطالب البيئة كما وبين ظروفها الطبيعية . ولهذا يحدث التغير للبيئة ثم يحدث لها
توسع والامتداد . ويترقى في وظائفها فيما لا تسعه واستندها ..

وقد عرضت له قضية البداية الأولى فلم يخلها في حدود الطبيعة ولم يخرجها من حدودها .. ولكنه قسم الحقائق الكونية إلى قسمين بالنسبة إلى الحرية الإنسانية : أحدهما حقائق الأشياء في ذاتها وفي أصولها الأولى وهي القسم الذي لا يدرك ولا يقبل الإدراك بالأساليب العلمية ، والآخر حقائق الأشياء في ظواهرها المحدودة وهي التي يستطيع عقل الإنسان أن يدركها بالاستقراء والاستدلال ، ويظهر فيها عمل المنطور إما باستخراج الأحكام العامة من المشاهدات المتفرقة ، أو بتفسير هذه المشاهدات على حسب تلك الأحكام .

وأصحاب هذا الرأي من المثاليين يتطور العام - على تودهم في مسألة الأصول الأولى - لا يتجهون هذه الأصول ، ولا يقررون أن القول بالتطور العام يوجب عليهم أن يرجعوا إلى المؤثرات الكونية التي تصدر منها الآثار الصغيرة وتفسر أسبابها . وأن إطلاق القول بالتطور من مبدأ الكون غير تخصيص تطور الكائنات لمصورية وتفسيره بالرجوع إلى العوامل التي تحيط بتلك الكائنات وتفعل فعلها أو تفعل معها مشاركتها ، ولكن أصحاب تطور العلم على مذهب سبنسر يسمون تلك المؤثرات الكونية ويكون البحث فيه عزوا عن الوصول إلى نتيجة ، فيفتنون بالمعرفة لاسمائية عند الآثار التي يدركونها ويعجبون عما وراء ذلك ، فيسلكون في عداد الغموضات التي لا تدرك بأحواس والعقول ..

ويبقى أصحاب التطور العام الذين لا يذهبون مذهب سبنسر في تقسيم المعرفة الإنسانية بين مدرك وغير قابل للإدراك ، وموقل ذلك مذهب الفيلسوف الايتوسي هاملتون (١٧٨٨ - ١٨٥٦) ومذهب الفيلسوف الألماني هانريش كانت (١٧٢٤ - ١٨٠٤) في الظواهر والحقائق أو في الأشياء كما تحس وتترك ، والأتيا في ذاتها .. فمذهب التطور هؤلاء فريقان ، يفهمان من مسألة الأصول الأولى موقفين متقابلين متناقضين .. وتفسير هذه الأصول عند أحدهما - وهو فريق المثاليين - أنه من صنع الخالق الحكيم ، وأن الفترة التي تصدر عنها آثار التطور في لكون كنه من لمائة لا بد أن تكون مقدرة فوق الطعة وفوق الكون تودعه من نشاء من النصف

موسس .

والفريق الآخر - وهو فريق الماديين المكربين - يكفى من التفسير لذكر لعوامل التي ينسب إليها التأثير واعتبارها طبيعة في المادة لا تفسرها إلا أنها وجدت مكانا ، لا يمكن أن توجد على صورة أخرى غير التي وجدت عليها .

فإذا احتاج لفيلسوف المادى إلى القول بالحركة الدائمة ، قال إنها عادة للنادة في أصل تكوينها ، وإذا لزمه لقول بالتغير مع الحركة قال إنه المادة المتحركة متغيرة بطبيعتها . وإذا لزمه بعد ذلك أن يجعلها متغيرة من البساطة إلى التركيب ومن النقيض إلى النقيض .. فهذا القول عنده هو وصف لواقع وتفسير له في وقت واحد . وكذلك يفسر التقدم والارتقاء وهما يستلزمان الغاية المرسومة ونتيجة مقصودة ، ولكن الفيلسوف المادى يحسب أنه فرع من التفسير بوضع كلمة (المصيرية) هنا مضع كلمة لغاية مقصودة .. وليس عند الفيلسوف المادى تفسير هذا التعدد الخالق في ظواهر الكون وأجزائه ، مع ابتداء تطوره من وقت واحد أو مبدأ واحد ، وجريان هذا التطور على مادة واحدة وقوة واحدة . وليس عنده معنى هذا التقدم أو عبه يتقدم إليه غير انقضاء أجل للكون مرة بعد مرة ، كما انقضى دورة من دوراته الأبدية بين التأخر والتقدم ، أو بين الميول والارتقاء .

وكى هذه الفلسفة المادية تلخص في كلمة تشبه كلمة الطفل حين تسأله عن سبب شيء فيقول لك « هكذا » بغير سبب ، أو تشبه كلمة الجاهل الذي تسأله عما وقع أمره فيقول لك : « وقع وحده » ولا تفهم منه حة لوقوعه أو ضح من قول مادى الفيلسوف إن المادة تغير لأنها متغيرة ، وتتقدم لأنها متقدمة ، وتتقل من بساطة إلى التركيب ومن النقيض إلى النقيض لأن ذلك كله من طبيعتها .. ولولا أن لمادى الفيلسوف يقرر مذهبه في التطور ليصل منه إلى نتيجة في المستقبل يوجبها على الناس وعلى الزمن لتساوى تفسيره للتطور العلم وسكونه عن نفسه .. ولكنه لو اختار أن يتبنا نتيجة تناقض تلك النتيجة ، واختار أن يفسر ذلك أيضا بأنه طبيعة من صفات المادة وطوره من أطوارها لما كانت حجته في إحدى النبوءتين بأقوى من حجته في الأخرى .

• • •

والقائلون بتطور الكائنات المفضية ، عن بقصرون القول عليها ولا يعممون طبق التطور على جميع الكائنات بلون - على الأغلب الأعم - إلى الفساد في تسميات والتعليقات . وينحنون البحث في الأصول الأولى مكتفين من الأسباب بما يتخضع لتحررة ويصح للتفكير بأساليب العلم الطبيعي الحديث .

وخلاصة مذهبهم أن أنواع الأحياء تتحول وتتمدد على حسب العواص الطبيعية ، ونما ترجع حبيبا إلى أصل واحد أو أصول قليلة لعلها هي الخلايا البدئية

وليس القول بتقارب الأنواع أو بتدرجها - رأيا حديثا مجهولا قبل ظهور مذهب دارون أو مذهب التشويين المصيرين على العموم . ولكنه رأى قديم قبل به فلاسفة يونان وعرفه مفكرو الغرب كما سنبه في فصل آخر من فصول هذا الكتاب ، وندم لجأيدا . منه إسنده إلى أسباب العمود الطبيعية التي شاعت بين أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر . وبدأ القول به مع ابتداء البحث العلمي على صحيح لعمري .

قال به العالم - في السويدى كزول لينوس (١٧٠٧ - ١٧٧٨) Carl Linnaeus الذى عني بتصنيف الأنواع والأجسام في درسته للنباتات وسمى على هذا التصنيف رأيه في أنواع الأحياء على العموم . وقد كان يباحث مع العلم أثر واسع في أئنة العلمية الإنجليزية ، فأشهر الجمع لمين في لندن بعد وفاته بمشروعاته . نسمة إليه .

وقال به بوفون المده المبلى الفرنسي (١٧٠٧ - ١٧٨٨) Buffon الذى ألف كتابه الفصل عن التاريخ الطبيعي بمعاونة الأستاذ دويتون Daubenton وآخرين .

واتخذ من تصنيف أنواع النبات رأيه بمثابة في تصنيف أنواع الحيوان وكان من المعاصرين لمين لعندين اراحموس دارون Erasmus Darwin (١٧٣١ - ١٨٠٢) حد دارون الذى ينسب إليه مذهب التشو والتطور ، فكان رائدا لحفبه في القول بتقارب بين الإنسان والحيوانات العليا ، وعاش معه في عصره الم - عفيه الأينيسى لورد مبودو (١٧١٤ - ١٧٩٩) Lord mon bodda صاحب كتاب أصل لغة وتربيه ، وكتبه من وراء خبيعة في المصور القديمة .

ومذهبه في تطور الإنسان ظاهر من بحثه عن الأسباب الضعيفة لتطور اللغة . وعن العلاقة بين الطبيعة وما وراء الطبيعة عند القدمين ..

ويتبين من المقابلة بين تواريخ ميلاد هؤلاء العلماء ، أن جو العلم الطبيعي في القارة الأوروبية من شامها إلى جنوبها كان قد تهيأ للبراسة الحية والأحياء على أساس الوحدة في قوانين الطبيعة ، ولم يكن ذلك مقصورا على السويد وفرنسا وإنجلترا ، بل صح من روايات مؤرخى العلوم عند الألمان والروس أن هذه الآراء وجدت من يقول ب على نحو من لأهاء . وإن كانت روايات هؤلاء المؤرخين لا تخلو من مداخله نحر والسق العسى بين الأمم الأوروبية .

ولكن مذهب الشو لم يُعرف تنصليه قبل العالم الفرنسي لامارك (١٧٤٤ - ١٨٢٩) Lamarck ثم العالمين الانجليزين . شارل دارون (١٨٠٩ - ١٨٨٢) - ورمبه ألفريد رسل والاس (١٨٢٣ - ١٩١٣) وعلى مباحث هؤلاء العلماء الثلاثة يقره أساس مذهب تشو ، أو مذهب التطور ، بنقيه المتقدمين و اعتبار

.....

وكل من لامارك ودارون والاس يقول بتحول الأنواع ، ويرد كثر إلى نوع واحد أو أنواع قبي ، ولكنهم لا يفتقون على أسباب التحول ولا على الصفات ويتناقش متى تتصل بالوراثة متى تغيرت في تكوين الأفراد ..

فنى رأى لامارك أن أعضاء الجسم الحى تتغير بالاستعمال أو بالامتناع أو بطارئ من طوريه المرض والاصابة ، وأن الصفات المكتسبة التي تترك من ذلك تنتقل بالوراثة ولا تزال تتجعد بين الأفراد حتى يفصل كل منها بنوعه المستقل الذى لا يقل عدلى مع غيره . وقد ضرب المثل بالوراثة وقرض أنها - أطول قوائمها - كانت تشكل طعناها من أطراف الشجر العليا ، وتعددت أن نمت عنقها كلما تجردت القروع سنلى من أورتها حتى بلغ غابة امتداده ، وثبت على هذا الطول في أعقابها خوالية .

والتشويين لمين يفرضون القول بوراثة الصفات المكتسبة ، يستدلون على

مطلان هذا الرأي يفيض لصفات المكتسبة التي شوهت من أجيال كثيرة ، ولم يشاهد لها أثر وراثي في الأجنة والمواليد ، ومنها أن نساء يورما تعودن منذ أجيال أن يطلن أعنانهن بالأطواق المريضة بضعن أطواق من فوق طوق حتى تبلغ من أطول غاية الاحتمال ، ولا تزال يتنهين يولدن بأعتاق لا تريد في حولها على أعتاق النين الذكور ، ومنها أن عادة اختان عدا يهود م تعذب أثرا وزانيا بعد استنارها منذ ثلاثين قرنا أو تزيد . ويشاهد مثل ذلك في قرية حيوان الداجن التي تعود المجنون له أن يقصعوا أذنيه أو يمسحوا بمضعضائه . فها تروا بأعضاء كأعضاء آباتها وأمهاتها بعد انقضاء عدة أجيال على تدجين

ويرى تشوويون الذين يقولون بوراثة الصفات مكتسبة أن قصر الزمن الذي مر على هذه المشاهدات - بقياس إلى الآحاد التي مرت على تطير الأنواع الحيوانية - لا يكفي لتجزم بمشاع الوراثة على إحداثها . وأن إهمال الأعضاء بالقطع ليس من شأنه ضرورة - أن يرث ونحو ذلك عبه لأمد . لأن المقصود بالامكان ما يحدث أثرا في قوة البنية الباقية أو ينشأ عن حدوث هذا الأثر فيها .

ويبحث تشوويون - من رأى دارون واللاس - إن تعين آخر لحاوث التحول في الأنواع . فمعيته بالانتخاب الطبيعي والانتخاب الجنسي ، مع القول بنتائج اجتماع زيادة المواليد المحبة على الموارد الكافية تغذيها ووقايتها .

والزراعة - عندهم - لم تنقل صفة مكتسبة إلى ذريتها ، ولكن أفراد الزراف ولدت قديما ولها غلاوت في الصفات كما يندوت لأفراد في جميع الأنواع ، وبقى أطولها عفا لأنه استطاع أن يبتغى أعلى الشجر حيث يقل الطعام ويقصر غيره من أفراد الزراف من بلوغه . وهنا يعمل الانتخاب الطبيعي عمله قبل ذرية الزراف الطوال العتق ويتفرس عداها ، ويعمل الانتخاب الجنسي عمله - مع الانتخاب الطبيعي - لأن الأفضل من ذكور الحيوان - منه فضل على غيره عند الجنس الآخر ، فيعقب كلا الجنسين المفضلين ذرية تنسب في الامتياز على سائر الأفراد .

ويسير مثل نزافة في رأى دارون بأسند حصر من هذا المثل في رأى لا مارك ، لأن المعارضين عبه يقولون إن قلة الورق على وبرج شجر السفلى يبيد صفاد الزراف

كما يبيد أنواع الخيول التي تعيش مطه على العشب أو على الشجر القصار ، وأن ذكر الزراف أطول أعناقا - في الغالب - من إناثه ، فهي خليفة أن تنقى مع غيرها من الزراف الفصل الأعناق . .

إلا أن الأكثرين من التشوويين يمترون هذا الخطأ سوء تمثيل من دارون ، ولا يعملونه سببا كافيا لبيان القول بالانتخاب الطبيعي . . فالرأى أن دارون نظري لمزبة القوائم لطوال ، ولم ينظر إلى مزبة العتق الطويل لأمكن تعليل بقاء الزراف الممتاز بالقدرة على اجري لمحل الانتخاب الطبيعي والانتخاب الجنسي في وقت واحد ، لأنه يفت من مطارديه ويسبق سائر الزراف إلى أماكن المرعى كلما اضطرنه ندرة المرعى . والانتقال من مكان إلى مكان ، وقد صبح تمثيل دارون بأنواع شتى من الحيوانات غير نوع الزراف فلم يصادفه فيها مثل هذا الاعتراض .

. . .

وبعد الفقرة بين الرأيين - رأى لامارك ورأى دارون واللاس - يتضح أنها متباينة . نتيجة متشابهة . وهي ضرورة القول في النهاية بوراثة الصفات المكتسبة على صوب الزمن ، فإن لم تنقل بعد اكتسابها في حياة فرد واحد فهي منتقلة بعد التجميع وتتمكن من فرد إلى فرد يتم بينها اتوارث لحاة أو عن أثر التدرج البطيء . ولم يكن في ذهن دارون فرض معلوم غير طول الزمن يوم خالف التشوويين من قبله في تعليله تحول الأنواع ، وكل ما هالك أن دارون جرى على عادته من اجتناب الأحكام الزاجية كل أمكن تعليل الطواهر المجهولة بالعلل السلية ، فهو يقول إن الأنواع تنق لأن أسباب الانقراض عجزت عن إبادتها ، بدلا من القول بمؤثرات معينة تحق الصفات تؤدي إلى انتقالها بالوراثة ، وتكاد آراؤه في تنازع البقاء وفي الانتخاب الطبيعي والانتخاب الجنسي ، أن تنسب إلى نتيجة واحدة ، وهي أن لأحياء بقيت لأنها لم تنقرض ، وأن أسباب العناء عجزت عن إبادتها كما أبادت غيرها . وهذه العادة الذهنية هي في وقت واحد مصدر القوة ومصدر الضعف في تحكيد دارون وفي هذا الضرب من التفكير على عموم . . لأنها دليل على أمانة الفكرية حتى تحجم عن تقرير حكم معين قبل ثبوته والاحاطة بحقيقتة ، وهي كذلك

موضع القصص الظاهر لأن العوامل السلية لا تقوم عليها دلائل الحق والانشاء .
وإن قامت عليها أسبانياً دلائل الزوال لدى بنيد زوال فريق وسلامة فريق . .

وقد كان خطأ النشويين في تقرير مسألة ايراة نقصاً لازماً لمباحث لعلم الطبيعي
في القرن التاسع عشر . أيا كان رأى العالم المتي يقرر هذه المسألة : لأن أسرار
ايراة لم تعرف قبل تقدم علم التاسلات (و الجينات) Genetics وظهور فعل
التسلة Gene واصبغة Chromosome في نقل الخصائص والفوارق الفردية من
الأباء والأمهات إلى الأبناء . فكل صفة لا تكمن في التسلة ولا تختبرها صمعة من
صفاتها فهي صفة عارضة لا تنتقل إلى النرية بالوراة ، ويقول الأستاذ نيفل
جورج - أحد ثقاة هذا العلم - إن الانتخاب الطبيعي - لأجل هذا - لا يصح
لعمل مذهب الشوء أو مذهب التطور ، لأنه يعمل زول غير الصالح ولا يعمل
تسدة المزاي التي تحقق الصرح وتكس لصاحبها لدوام في ميدان تنارع البقاء ، ثم
تنح الباب لعمل الانتخاب الطبيعي في المستقبل من التفرات في تلك المزاي الموروثة
بين الأفراد . وإنما تسأ هذه المزاي بعمل من أعمال طفرة Mutation يكتفي
بحدث التغيير المطلوب في التسلة وفي صمعة التي تنقل تلك المزاي بالوراة وقد
أمكن لعلم بالخواص التي تنقلها كل صفة من الصفات في بعض أنواع النبات
والحيوان ، وأمكن التأثير في الصمعة بفعل العققر أو الأشعة احسنة ، ويقال إن
الأشعة الكونية تفعل هذا الفعل إذا نقذت إلى بنور النبات والحيوان ، وبها يعملون
اتحول المفاجيء كما يعملون الاختلاف الطاريء على التت ل الألوان والأحجاء
والأشكال ..

ونجرب تجارب الأشعة الآن لاحداث التحير الموروث في أنواع من المذاب
وتقرش ، وقد تزدى التجربة فعلا إلى ظهور صفة في تحيرة تغير قوتها فتخالقها
بعض المخالفة ويثبت الاختلاف بعد ذلك على متن الورثة المعروفة بالتسلية ، نسبة
إن « مندل » صاحب التجارب المشهورة في نية الحبوب . ومن هذه التجارب
تربة أنثر الأشعة حسنة على ذباب الفكهة معروف باسم الدرسقبلة
Drosophila فإن تعرض الذبابة منه للأشعة يغير نريته . فتأني مخالفة لها في لون

العين أو في طوى الجناح ويثبت هذا الاختلاف بعد ذلك في أجيالها المتعاقبة على
السنة لمدنية المقررة لتنظيم خطة الوراثة على نسق معروف من الأعقاب إلى
الأعقاب . .

• • •

وينجد الآن سؤال نديم ملازم لفكرة الشوء منذ انتشار مذاهبه قبل تقدم علم
التاسلات : قد موسى سريان التطور على الجنس البشرى ؟ هي هناك حد فاصل
بين البشرية والحيوانية ؟ وإذا أمكن غذا تحسين أنواع الحيوان بمعاينة التاسلات ،
فهل يمكن استخدام هذه الوسائل في تحسين صلات الإنسان الفكرية
والروحية ؟

إن النشويين لم تسألوا عن هذا العامل ، منذ قرروا راءه عن التطور على
قواعد العلوم التجريبية وجابوا عنه بجاباته عن حسب عقولهم مرة وعلى حسب
أمزجته مرة أخرى .

فادعم الفرنسي ديفول بقر أن تقسيم الأنواع بتداول الانسان من جانب الحيوان
ولا يعرض لحواله حمرة له في سفة لمؤمنين ، ودارون يقول انه يتكلم عن الأموار
لتي تؤثر في جسم الانسان ولا شأن له بما غذا ذلك من الملكات الروحية التي يقرها
له الدين . وهذه لأجوة من النشويين ليست بالأجوة خديعة في بابها على ذلك
السؤال القديم . من ابن سينا - مثلاً - كان يقرر مذهب لط في الأمراض التي
تنسب إلى فعل اجن والأرواح الخيئة أو النفسية فيقول انه لا يفي هذا الفعل ولكنه
ينظر إلى آثاره حديدية فيرى انه تحدث الأعراض التي يعالجها بعلاجها الطبي
الموصوف لها عند لأطباء

ونس النشويين جميعاً على منهج بوقون ودارون أو منهج ابن سينا وأصحابه من
علماء الزمن القديم ، فإن بعض علماء الشوء المحدثين - وعلى رأسهم ارنست
هكل - ينكرون كل نسبة للانسان غير نسبته إلى أنواع الحيوان . ويعملون لهذه
النسبة شجرة تجمع بينه وبين القدرة العليا وتنزل في جنودها إلى مقردة الذنب التي
تتبع في أمريكا لوسطن وأمريكا الجنوبية Marmosets . وهم تخمّل الجوفى

الأقاليم الشمالية ، ومن دونها الليمور Lemny فرد مدختر ، وهو موضوع في شجرة النسب دون فردا المرموز الأمريكية

ويرتب النشويون القردة العليا - صعدا - من الحيوان إلى الإنسان ، إلى الشمبانزي ، إلى الغوريلا ، وقد يفرقون بينها في درجات الرقي بحسب عبادها على تساق الأشجار أو المشي على أديم الأرض والتدبرة على الوقوف واعتدال إقامة عند السير على قدمين .. فذاته ما كان هناك كله عن التسلسل ومعبشه كلها فوق الأشجار . وأعلما ما استقى عن تسلسل الأشجار واحتاج إلى استعمال يديه وهو مش على قدميه ، فإن تمدد ماغ مرط بدرجة العمود المقوى ومضام حتى ودرجة النصف بالدين عن بعد وإرادة تحقيق عمل من الأعمال . ورغم هؤلاء نشويون أن التطور ، لأنساني له علامات كند من قردة الليمور وقردة المرموز الدنية . وتدرج صعدا - إلى الإنسان حيث يزود الدب وبني السبع وتحويل اليد إلى أداة صالحة لشغل غير مقصورة على المشي أو الحفر بفروع الأشجار . ويجعل تلك العلامات أنها بواور الخوص والوقوف وحفظ الدب ومحس القدمين واليدين

وبذهب أحد النشويين المحدثين إلى القول بأن نوح الإنسان سابق لأنواع القردة تحت الأنوف من الجنس ، وأن القردة العليا أساس مجموعة فصائل وهي فصائل البشرية ، واعتبرت في الصفات العقلية والجسدية إلى ما دون تلك مرتبة بكثير أو قليل

وصاحب هذا الرأي هو الدكتور هيرمان كلاشن Klamash الذي كان يدرس علم الإنسان بجامعة برسلو قبل الحرب العالمية الأولى . وعنده أن يسان جاره الذي وجدته بقاياها التحجرة وأطلق عليه العلماء اسم Pithecanthropus هو المرتبة الوسطى التي صعد منها خلفوها إلى ما فوقها وهبط منها اخفاء الآخرون إلى ما دونها ، ويرغم « كلاشن » أن الإنسان ينتمي إلى أصنوف متعددة ، ولا ينجم كنه من أصل واحد . فالغوريلون وقردة الأورانج من أصل واحد ، ويخرج إفريقيا

والشمبانزي والغوريلا من أصل آخر ، ولكنه زعم لا تفرده القوية بين هذه الأحياء في الخصائص التشريحية ..

ومن المفارقات أن هؤلاء النشويين السابقين لم يسحوا بالقردة ذلك تشبه الذي تصورته طائفة من الأقدمين في انتشار القول بالنشوء واشتراك الأنواع والأجناس فمن تلك الطائفة من الأقدمين تصورت أن جميع قردة أروسي ممسحون عقلت المشبه وقيت لهم أهمهم ، وليس بينهم وبين الناس من فرق غير تفاوت الذي ياعد من الكائنات المشوبة والكائنات لسوية من أصل واحد . ولكن شجرة النسب كنتاج إلى علم التشريح لا يخط المشابه التي ترجع القول بوحدة الأصول الجسدية بين الإنسان وبين أقدم الخلق من أنواع الحيوانات الحب ..

يقول آرثر كيث - من أكبر النشويين النحويين - في كتابه شجرة نسب الإنسان : « إن الأستاذ رود هولس تحت النظر في ماء علامات كثيرة في تركيب الإنسان قد اخضعت من تركيب القردة العليا وعمة القردة . وأن هذه القردة العليا ربما قردة قد حصلت علامات شبيهة بالإنسان . واستدل على أن هذه شذوذات تستلزم تعديل النسب التي وضعها . ولكني أرى أن ... » ينفي أن يلتزم في زيادة العانة بهم قوانين مورثة ، من الكائنات الحية ألبه بأشكال الميسماء - حدة ينش بعض تشابه القردة ويخلق قردة - والغوريلا تولد في أكبادها الفصائل التي تولد في أكباد القردة . بينما تقرب كبد الأورانج أنه الاقرب في تركيبه المتماثل من كبد الإنسان ولكنه ينبغي أن نفرض أن هذين خبيرين تحديدا منذ عهد بعيد من صف مشترك يشبه تركيب كبد حيوان . ثم يستمر إلى بين التشبه بين الإنسان والقردة الأمريكية فيقول : « إن الإنسان له على جانب تجويفه لأنق سبعة من الجيوب تسمى بأعضاء القردة التي تدورها .. ولا يستلزم أن نعتقد أنها تنولد على حدة في جوف من أخوان . ويوجد هذا الخط لاساني في كل من لشمبانزي والغوريلا ، وإن كانت جيوب في الغوريلا وحدها قد اتخذت لها نمط آخر ، ومن الخاطئ أن نمط آخر كون موجود في أنت سلف

الأوراثية ويصعب التحقق منه بعد انعكاس تركيب الأنف كله في هذا العضو الكبير من أعضاء الحيوانات القردية العليا.. ولد حرف أن دم النوريلا ودم الشمبانزي أقرب استجابة إلى الاتصال بدم الإنسان من جميع التفاروت.. وتنع العلامات المشتركة بين الإنسان وكل من الشمبانزي والنوريلا نسبة إلى سائر العلامات التي أحصيتها تقرر بمثابة وسمة أعمار في المدة، وهذا أتوقع أنه بقية من بقايا المنحدرات تكشف يوما في إنزقية نعتبر السلف المشترك بين النوريلا والشمبانزي والإنسان.

هذه هي العلامات تشريحية التي انتهى إليها أصحاب شجرة النسب من النشويين المتأخرين، وما عداها من العلامات ووجوه تشبه لا يعلو أن يكون إعادة تصوير المشابه العامة التي يسميها النظر لأول وهلة عبر ساحة إلى تشريح الأعضاء، وقد أحصاه الأستاذ شيمان بنشره Pischer في كتابه عن تحليل تطور، ثم صنف عليها قائلا: «إنه لا احتمال لتسلسل الإنسان من القردة كما تعرفها، لأن القردة مفردة بتركيب خاص يستحيل تشريحيًا أن يتطور منه تركيب الإنسان، إذ كان الإنسان قد عا له خلال مليون سنة دماغ أكبر وقامة أقوم ويد - فوق هذا وذلك - أصح للناول والصرف بالاستعمال».

وهذا الفصل الخنم هو قصارى مدى لاقترب بين النوع البشري وسائر أنواع الأحياء بمقياس التطور وعلم الوراثة، يبرر به نشوي فيقول أنه سبق مليون سنة، ليحقق به مدى التفارق لروحي في تمييز السين.

التطور قبل مذهب التطور

إن اختلاط الأنساب بين أنواع الحيوان خاطر قديم نوارته لأقدمون من أرملة مجهولة، ونشرت أمة من ثم لطف البعب لم تنوتر فيها الأخبار والأساطير عن التماس بين أنواع الحيوان أو بين لسان وحيوان، أو بين الإنسان والحمار، أو بين الإنسان وأرباب الأساطير المشبهين بالإنسان. ومرد هذه الأخبار والأساطير - على الأسم - إن جعل الأوائل ميثاق لأعضاء، وحهمهم بالشروط الحيوية التي تلزم للحمل والولادة وإمكان التسلل بين الأزواج المستعدة للتواصل في النوع الإنساني فضلا عن سائر الأنواع، فكان ما يرد من نبعه صانع عتدهم لتولد من الأنواع الأخرى من الأحياء.

وقد سبق القول بالتطور وتدرج الكائنات، كما سبق القول بتحريك الأنواع وتناسلها.. ولكن لمة غير متامة: مردها - على الأرجح - إلى الفاصلة والتريب بين الكائنات على حسب حفظها من الحياة أو من مشابهة الأحياء.. ثم نشأت علوم الكيمياء والطب والزراعة، فكان للعمل عملة في انفرقة بين المواد الكيميائية المعنوية والنانية وحيوانية. واشترك الأحياء وغير الأحياء في مباحث الكيمياء، ثم جاءت في مباحث المتأخرين مقابلة الكيمياء العضوية بالكيمياء غير العضوية.

وما يشه القول بتطور الكائنات وتدرج قول التدرج في شرحه لأقوال الخلق الأول من كتب آراء أهل الشية الفاضلة «إن قريب هذه الموجودات، هو أن تقدم أولا أخصها - ثم الأفضل فأفضل، إذ أن تنهى إلى أفضلها الذي لا أفضل منه. فأخصها المادة الأولى شذوكة، والأفضل منها الاسطقسات المعدنية ثم النبات، ثم الحيوان غير الناطق، ونهى يعد الحيوان الناطق أفضل منه».

ويذهب تشارلز على حد تريب في البعرة بين الإنسان والإنسان، بمقدار حفظه من القوة الشاذقة. فبجانب يكون بعض نشاء الآدميين بالصورة الجسدية غير حامين أو غير أهل للحياة الأخرى.

ويقول الكندي ^(١) وهو يكلم عن صانع القرد : « إن هذا الحيوان عند المتكلمين في طبيعته مركب من إنسان وميمية . وهو من تدريج الطبيعة من البهيمة إلى الإنسان »

ويقول الفزاري صاحب « عجائب مخلوقات » بعد تقسيمه الأجسام إلى نام وغير نام ، وهو ما يقابل اليوم تقسيمه إلى نعضوي وغير العضوي : « إن أول مرات هذه الكائنات تراب وآخرها نفس منكبة ماهرة ، فإن المعدن متصل أولاً بالتراب أو الماء وآخرها بالنبات . والمعدن متصل أوله بالمعدن وآخره بطيوان ، والحيوان متصل أوله بالنبات وآخره بالإنسان . والنفس الإنسانية متصل أولاً بالحيوان وآخرها بالنفوس المنكبة .. »

ومما الانتقال من المشابهة بالجسد إلى المشابهة بالنفس يبيح باحتراس لثنويين المحققين عند التفرقة بين الإنسان من جهة الميراث والانساني من جهته الروحاني أو جانب القوى الأدبية الوجدانية .

ويقول إخوان الصفاء في رسالتهم مشفرة : « علم يأخى أن أول مرتبة النباتية وديها مما يلي التراب هي خضراء الدم . وآخرها وأشرفها مما يلي الحيوانية النخل . وذلك لأن خضراء الدم ليست بشيء سوى صبر ينلبد على الأرض والصخور والأصهار ، ثم يهيئها الله لفتنسيم بالنعاء حصية كأنه نبت زرع وحشائش ، فإذا نضجها حر الشمس نصف النهار تجف ثم تصبح بذفاً مثل ذلك من ندوة الليل وطيب النسيم ، ولا تثبت لكماً ولا خضراء نمن إلا في أيام الربيع في البقاع المتجددة لتقارب ما نسب . وأما النخل فهو آخر مرتبة النبات مما يلي الحيوانية ، وذلك أن النخل نبات حيواني لأن بعض أشجاره وأغصانه ميبس لأحوال النباتات وإن كان جسمها نباتياً .. وفي النبات زرع آخر فله أيضاً فعل النفس الحيوانية ، وإن كان جسمها نباتياً وهو الأكشوت ، وذلك أن هذا النوع من النبات ليس له أصل ثابت في الأرض كما يكون لسائر النبات . ولا يرق كالأشجار بل هو يتلف إلى الأشجار والبروز والنبوت وحشائش وينسج من رطبها وسعدى كما يفعل الدود ^(٢) محمد بن شاذلي بن عبد الرحمن الكندي الداردي ولد في سنة ٧٦٤ هـ ونشر كتابه المعجمة وقولاً لوليات »

الذي يذب على ورق الأشجار وقضبان النبات .. وإن أدون الحيوان وأقصاه هو الذي ليس له إحاسة واحدة وهو الحيلون . وهي دودة في جوف أنوية تحت في تلك الصخور التي تكثر في بعض سواحل البحار وشطوط الأنهار ، وتلك الدودة تخرج نصف شعاعها من جوف تلك الأنوية ، وتبسط يمينه ويسرة تطلب مادة تغذى بها جسمها ، فإذا أحست رطوبة وليتا انبسطت إليه وإن أحست بخشونة أو صلابة انقبضت وخصت في جوف تلك الأنوية حلداً من مؤد لجسمها ومفسد فيكها ، وليس لها سمع ولا بصر ولا شم ، إلا ذوق اللبس حسب . وهكذا أكثر الثدييات التي تكون في الغنى في قعر البحر وعمق الأنهار ليس لها سمع ولا بصر ولا ذوق ولا شم ، لأن الحكمة الإلهية لم تعط لحيوان عضواً لا يحتاج إليه في وقت جر المضقة أو دفع المضرة ، لأن لو أعطاه ما لا يحتاج إليه لكان وبالاً عليه في حفظها وبذلها . لهذا النوع حيواني باقى لأنه يبت جسمه ، كما يبت بعض النبات ، ومن أجل أنه يتحرك بحسبه حركة احتيائية فهو حيوان ، ومن أجل أنه ليس له إحاسة واحدة فهو أنقص الحيوانات رتبة ، وتلك الحاسة أيضاً هي التي يسلوكها النبات فيها ، وذلك أن النبات له حسي اللبس حسب .

ويقول ابن مسكويه من علماء القرن الرابع وأخماس الهجرة في كتابه تهذيب الأخلاق بعنوان الأجسام الطبيعية : « إن الأجسام الطلعة كلها تشترك في أحد الذي يعمها ثم يتفاضل بقيت الآثار الشريفة والصور التي تحدث فيها ، فإن الجهاد منها إذا قبل صورة مقبولة عند الناس صار بها أفضل من الطينة الأولى التي لا تقبل تلك الصورة . فإذا سبغ إلى أن يقبل صورة النبات صار بزيادة هذه الصورة أفضل من الجهاد ، وتلك الريادة هي الاعتناء والنمو والامتداد في الأصهار واجتذاب ما يوافقه من الأرض والماء وتلك ما لا يوافقه وتنفذ الفضلات التي تولد فيه من جسمه بالصمغ . وهذه الأشياء التي يتصل بها النبات من الجهاد ، وهي حال زائدة على الجسمانية التي حدهاها وكانت حاصلة في الجهاد ، وهذه الحالة الزائدة في النبات التي شرف بها على اتحاد تفاضل ، وذلك أن عصبه يوافق الجهاد بقدرة بسيرة كالمرجان وأنسجه ، ثم يتدرج فيها فيحصل له من هذه الزيادة شيء بعد شيء .. فمضه يبت من غير زرع ولا بذر ولا يحفظ نوسه بالثلج والبذر ، ويكفيه في

حيث امتزاج العناصر وهبوب الرياح وطلوع الشمس ، فذلك هو في أفق الحيوانات
وقرب الحال منها .. ثم تزداد هذه الغضبية في النبات ، فيحصل بعضه على حفر
بتطاه وترتب حتى تظهر فيه قوة الأثمار وحفظ النوع وينبت الذي يخلف به منه ،
تتصير هذه الحالة زائدة فيه وميزة له عن حال ما قبله .. ثم تقوى هذه الغضبية فيه
حتى يصير فضل لثالث على الثاني كفضل الثاني على الأول . ولا يزال يشرف
وبعض بعضه على بعض حتى يبلغ إلى أفقه ويصير في أفق الحيوان ، وهو كرام
النجر كالزيتون ، والرمث ، والكركم ، وأصناف الثوبوكه .. إلا أنها
- بعد - مخلقة القوي ، أعني أن قوى ذكورها وإنثائها غير مسمرة ، ظهر حمل
وتد مثل ولم تبغ خبة أضها الذي ينصل بأفق الحيوان .. ثم تزداد وتعمق في هذا
الأفق إلى أن يصير في أفق الحيوان فلا تحتمل زيادة . وذلك أنه إن قلت زيادة
بسيرة . صارت حيوانا وحررت عن أفق نبات .. فحينئذ تتميز قواها وتفضل لها
ذكورية وأنوثة وتقل من فضائل الحيوان نورا تتميز بها عن سائر نبات وشجر ،
كالحسن الذي طلع أفق الحيوان بأخوص العشرة كزيرة في مواضعها وه يبق
بينه وبين حيوان إلا مرتبة واحدة وهي لإطلاع من الأرض واسعى إلى عداها ،
وتدري في الحسب ما هو كالأشارة أو كالمز إلى هذا المعنى وهو قوله صلى الله عليه
وسم : « أكرموا عهذكم النخل » فإني خلقت من بقية صفة آدم .

يستطرد ابن مسكويه إلى ذكر حيوان بما يشبه قوله المحدثين من تسليحة
الحيوان في تاليع البهائم . فيقول إن الحيوان : « إن كان ضعيفا لم يعط سلاحا
التيه . بل أعطى آلة اقرب كشدة العدو والقدرة على الحيل التي تنجيه من مخاربه .
وأنت ترى ذلك عينا من الحصان الذي أعطى القرون التي تجرى له مجرى نزع ،
وتحت أعين الأنسب والغالب التي تجرى له مجرى السكاكين والخنجر . والذي
أعنى آلة الرمي التي تجرى له مجرى النبل والشاب . والذي أعطى الخوف التي
تجرب له مجرى الدبوس والطرد . فإما ما لم يعط سلاحا لضعفه عن استعماله
ولتة شجاعته ونقصان قوته المضيق ، ولأنه لو أعطيه لصار كلالا عليه ، فقد أعطى
له حرب والحيل بقوة الصدر والخلف وحمل وأمر وعه كالألوان والشمع ..
لأنه قد عرض من هذه الآلات كلها بأن هدى إلى استعمالها كلها .. »

ثم يتدرج إلى أقرب الحيوان إلى الإنسان ، وهو الذي يحاكي الإنسان من
تفاه نفسه ويشبه به من غير تعليم كالقردة وما أشبهها ، ويبلغ من ذكائها أن
تستكن في الأدب بأن ترى الإنسان يعمل عملا لتعمل مثله من غير أن تحوج
الإنسان إلى تعبه بها وريضة لها . وهذه غاية أفق الحيوان التي إن تجاوزها وقل
زيادة بسيرة . خرج بها عن أفقه وصار في أفق الإنسان الذي يقبل العقل والتمييز
والطق والآلات التي يستعملها والصور التي تلامها .

ولا يقف لتدرج عد أفق الإنسان ، بل يتفاضل الناس بين أتم لا تسمع عن
القردة إلا بحرية بسيرة ، ولم تزايد فيهم قوة التمييز ونهم إلى أن يصيروا إلى وسط
الأقاليم فيحدث فيهم الذكاء وسرعة المهيم والقبول لمضائل . وإلى هنا الموضع
ينتهي فعل الطبيعة التي وكها الله عز وجل بالهوسات ، ثم يستعد بهذا القبول
لاكتساب الفضائل واقتناء بالارادة والسعي والاجتهاد الذي ذكرناه فيما تقدم .
حتى يصل إلى آخر أفعه .. فإذا صار إلى أفقه انصل بأفق للثبات . وهذا أعلى
مرتبة الإنسان .. وعندنا تأخذ الموجودات وينصل أولها بأخرها ، وهو الذي
يسمى دائرة الوجود ، لأن الدائرة هي التي قبل أن حدها أنها خط واحد يتدنى
بالحركة من نقطة وينتهي إليها فيها . ودائرة الوجود هي المتحدة التي جعلت الكرة
وحدة . وهي التي تدل دلالة صادقة برهانية على موجودها وحكته وقدرته ووجوده ،
تبارك اسمه وتعالى جده وتقدس ذكره .

إلى أن يقول مخاطبا طالب المعرفة : « وحدث لك الإيمان الصحيح وشهدت
ما غاب عن غيرك من الدماء ، وبلدت أن تتدرج إلى العلوم الشريفة المكونة التي
مبدؤها تعلم المصنق . فإني الآلة التي تقوم الفهم والعقل الغريزي ثم الوصول به إلى
معرفة الخلائق وطباعها ثم تعلق بها والتوسع فيها والتوصل منها إلى العلوم الإلهية ،
وحيث تستعد تقبيل مراتب الله عز وجل وعظمته ، فأبئك القبح الإلهي ،
تسكن عن من انطيمت وحركتها نحو الشهوات الحيوانية وتنحط المرتبة التي
ترقيت منها أولا من مراتب الموجودات ، وعلمت أن كل مرتبة منها محتاجة إلى ما
قبلها في وجوده . وعلمت أن الإنسان لا يتم له كونه إلا بعد أن يصل إلى ما قبله
وإذا صار إنسانا كاملا وبغ غاية أفقه أنفق نور الأفق الأعلى عليه ، وصار إنسانا

حكما تاما تأتبه الاشارات بها يتصرف فيه من المحاولات الحكيمة والتأيدات العلوية في التصورات العقلية ، وإما نيبا مزيدا يأتيه الوحي على ضروب المنازل التي تكون له عند الله تعالى ذكره ، فيكون جنته واسطة بين الملاء الأعلى والملاء الأسفل .. ولذلك تكثر حلجات الناس إلى المقومين والمنفيعين ..

ونحوى كلام ابن مسكويه أن الترقى الطبيعي يشي إلى غاية رسع الطبيعة من ترفة الجسد واتمم حسه وأعضائه ، ثم بدأ الترقى بالعقل والخلق من أفق الحيوان إلى ما هو أعلى وأرفع وأقرب إلى الملاء الأعلى ..

ولابن مسكويه بحث كهذا في كتابه « الفوز الأصغر » يبدأ فيه من البداءة ، وهي ما ساءه بالمركز فيفسر : « إن أول أثر ظهر في عالمنا هذا من نحو المركز بعد امتزاج العناصر الأولى - أثر حركة النفس في النبات ، وذلك أنه يتميز عن الجراد بأخرى والاعتداء ، وللنبات في قبول لأثر مراتب مختلفة لا تخصي ، إلا أنها مقسمة إلى ثلاث مراتب : الأولى والوسطى والأخيرة ، ليكون الكلام عليه أظهر .. ثم ينتهي كماله في تهذيب الأخلاق إلى آخر مرتبة الحيوان وهي « مراتب الفروء وأنسابها من الحيوان الذي قارب الإنسان في خلقه الأسابية ، وليس بينها إلا ليسير الذي إذا تجاوزته صار إنسانا »

• • •

وأشار ابن خلدون إلى هذا التدرج - أو التطور - فترقى به من المعد إلى القرد إلى لائنسان ، وعلل اختلاف الناس بتأثير الإقليم وأحوال المعيشة على الآداب والأخلاق ..

قال : « إن عالم التكوين ابتداء من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدرج : آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات مثل الحشائش وما لا يسور له ، وآخر أفق النبات مثل الخيل والكرم متصل بأول أفق الحيوان مثل الخنزير والصدف ولم يوجد لها إلا قوة اللمس فقط ، ومعنى الاتصال في هذه المكونات أن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد الغريب لأن يصير أول الأفق الذي بعده ، واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه وانتهى في تدرجه التكويني إلى لائنسان صاحب الفكر والروية ترفع إليه من عالم القردة الذي اجتمع فيه الحس والادراك

ولم ينته إليه الفكر والروية بالفعل .. وكان ذلك أول أفق الإنسان من بعده ، وذلك غاية شهودنا ..

وينبغي أن نخلطون أرواح الفاتلين بنسبة الألوان والطباع إلى الدعوات أو اللغات ، فيقول إن « بعض تسابين عن لا علم لهم بطباع الكائنات ، توهم أن السودان وهم ولد حام بن نوح اختصوا بنوع السواد لدعوة كانت عليه من أبيه شمر أثرها في لونه وفيما جعل الله من الرق في عقبه .. ودعاء نوح على ابنه حام قد وقع في الترواة ، وليس فيه ذكر سراد .. ونحو دعا عليه أن يكون ولده عبدا يخدم إخوته لا غير . وفي القول بنسبة السواد إلى حام علة من طبيعة الحر والبرد وأثره في الهواء ، وفيما يتكون فيه من حيوانات »

ويقول في موضع آخر : « ستول الحر على أبدانهم وفي أصل تكويهم ، فكان في أرواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم .. وكذلك يلحق بهم قليلا أهل البلاء البحرية لما كان هوؤها متضاعف الحرارة بما يعكس عليه من أسواء بسيط البحر وأشده »

ويصحح بعض المتقدمين من لعله يسبق إلى الرهم من القول بتدرج الكائنات ، إذ يحيل إلى الجاهلين بمعناه أنه يعني الكائنات في درجة من مراتب الترقية . وإنما حقيقة كما قال الخنزي : « إنا إذا قلنا إن الإنسان بلغ حد الكمال (كان يوما عجلا نصار حمارا فعدا حصانا ففصحى بعده قردا ، فليس معنى ذلك أنه كان يرم عجلا نصار حمارا فعدا حصانا ففصحى بعده قردا حتى صار في النهاية إنسانا ، فليس عندهم من الضروري أن يكون كل كائن رفيع قد تنفل قبل ذلك بين أطوار الكائنات التي هي دونه ، وإن كان جميع المتكلمين في أطوار الكائنات احية لا يمنعون إمكان التسامد بين الحشرات والحيوانات المختلفة ، كما جاء في كتب الحية ن جميعا ، وآهه في الملاحظ على المصوص إسهابا سلّم فيه من كثير من حرافات المتقدمين عليه واللاحقين به في هذا الباب ، وأكثرهم ترددا هذه الحرافات الغزويني صاحب عجائب المخلوقات فهو حامل بالأساطير عن اختلاط أنواع الأحياء . وعن اختلاط الأسطورية التي انتشرت ولم يبين منها آثارها وأخبارها ، وعجائب مخلوقات التي تنافر الأحاديث عن وجودها في الأطراف النائية التي لم يصل إليها

أحد غير من ضل طريقه أو ضلعت به السفن من الملاعين والمفررين . وهذه الأساطير - كما قلنا في غير هذا الكتاب^(١) - نفعنا الآن أكثر مما نفعنا حينئذ تلك الكتب ، لأنها هي طبقة البالية لنا من تلك الأوهام التي تسلط على العقل الشرى في زمانه الخالية ، وهي القناع الذى ليس لدينا مفتاح سواء لخزائن الخيلة ، وما أكتسب من تصورات الانسان وجدانه وما انبعث فيها من البهائم الحميمة المتغلغلة ، التي عودتنا أن تنطق بالأحاجي والألفاظ رتبهم حتى على صاحبها وهو الذى أوحدها وصورها .. وهذا الكتب الذى نحن بصدده مكثف بتفصيل أنواع هذه جبرانات وما يشاكل منها في أثير البحر ... فكم كسب المذبح وقفل المذبح وبقرة الماء وورس الماء ، وزعموا إنها تلد من جبل الأرض ، ومما إنسان ناه ويشبه الإنسان إلا أن ذنبا . وقد جاء شخص بواحدة منه - على قرن الغزوين - إلى بغداد ف عرضه على - من ، وذكر أنه في بحر الشام بعض الأوقات يطلع من ماء إلى الحاضرة إنسان - رء خية بيضاء بسموته شيخ البحر ريقى فيما ثم يتزل ، فإذا رآه الناس ينسحبون بحصص . وحكى أن بعض الملوك حمل إليه إنسان مائى فزاد الملك أن يعرف حاله ، فزوجه امرأة فجد معها ولد ينهم كلاء لأبرين ، فقيل لولد : مد يقول أبوك . قال : أذئاب أخيوال كلها على أسفلها فما بال هؤلاء أذنبهم على وجوههم . ونقل عن يعقوب بن اسحاق السراج أن رجلا ركب البحر فألقته اربع إلى جزيرة ... فأتى قوم وجوههم كوجوه الكلاب وسائر أبدان الناس ، وهذه الأساطير وما شاكلها قد تدرس على أنها تعبيرات من عمل الخيلة في فهم الصورة البعيدة بزمانه ومكانها ، وقد تدرس على أنها ترجان سوعى لباطل الذى استغرق أهواق يديته لإنسان وغرائره فزائفة ، ولابد أن تدرس في جميع الأحوال لأنها مما يصح أن يعتبر : سودات ، للامرئ الإنسانى تنفهر في كل عصر ولا يتزل في كل عصر معلمه بين شك واليقين وبين الزهيم والصدق في انتظار التمسح والتفتيح .

(١) كتب المصنف

أثر مذهب النشوء في الغرب

هول إعلان مذهب النشوء في الغرب بثررة عاصفة من حملات الامتكار والتكفير في البيئات الدينية ، ويرى بعد انقضاء أكثر من قرن على إعلان هذا المذهب أن حملات الدين عليه في البلاد الغربية لم تكن أحدا ولا أبقى بالبحث الدينى أو العلمى من أثر هذه الحملات التي قوبل بها في بلاد الشرق يوم انتقل إليها للمرة لأول ، كما سنسبه فيما يلي :

لقد حرم بعض معمد العلم تدريس مذهب نشوء ، فقل هذا المنع ببق الأثر إلى ما بعد الحرب لعالية الأولى بسنوات ، وحوكم الأستاذ سكوب في ديتون (شهر يوليو سنة ١٩٢٥) لأنه خالف القانون الذى حرم تدريس المذهب لحوجه على العقيدة الدينية ، وهذه بعض الأسئلة والأجوبة التي سحبت أثناء المحاكمة بين محمى الدفع وخبير الاثام :

- هل تقرر أن كل ما ورد في التوراة ينظر أن قبل تفسيره الحرف .
- أنا أقول أن كل ما ورد في التوراة ينبغي أن يقبل كما ورد فيها . وبعض ما جاء في التوراة قد ورد في سبق التشبيه ، كقوله : « تكلم مع الأرض » . فلا استلزم من ذلك أن الانسان كان ملحا أو أنه كان له دم من الملح ، ولكنني أهتم كما فهم معنى شعب الله المختار .

- هل لك أن تخبرني بامستر بريان كم عمر الكرة الأرضية ؟
- كلا ياسيدى لست أدري .
- ولا على وجه التقريب ؟ . . .
- لست أعرف . . . وعلى تقرب من تقدير العلماء : ولكنني أحب أن أدقق كثيرا

قبل الجواب

إنك لا تتبأ كثيرا بالعلماء .. أتنبأ بهم حقا ؟

- نعم ياسيدى . . .

- أعتقد أن الكرة الأرضية صنعت في ستة أيام .

سنة أم نم .. ولكنني لست أيام الأربع والعشرين ساعة .

وقد لخدم الجدل أثناء الاستجواب حتى اندفع الفريقان إلى التشهير بالعدول
الشعبي والمذاهب العلمية التي كانت مباحة لتأثيرين محرمة على المعلمين ، وكان أثر
الضجة التي رددتها الصحف والأندية الثقافية حول هذه المحاكمة أن قانون التحريم
سقط بلاهلال ثم بالالفاء .

لا أن الباحثين الدينيين عدلوا اختيارا عن التحريم بقوة القانون إلى مناقشة المذهب
بالبهرين العلمية ، فأخذ منهم فريق في تفسير المذهب بالمعنى الذي يوافق الروايات
الدينية بتعاليها الرمزية ، وأخذ لفريق الآخر في إنكاره بالأدلة العلمية التي استند إليها
المفسر ولا يزالون يستندون إليها إلى هذه الأيام .

نصرت عند الاحتفال بالثناء سبعين سنة على إعلان المذهب . كتاب من كتب
البحث العلمي على الطريقة الدينية أفاد الأستاذ ت . ب . بيشوب وسماه « الشوه
مستد » ولم يرحح فيه عن نصوص الكتب ، ولكنه أخرج من هذه النصوص ما
يتواءم مع الفرض الذي يفرضه فيها روايات التاريخ كمنزلة بين النقصان ووفود الخليل
إبراهيم إلى كنعان . وأخرج منها المقولات التي لا تتعارض فيها النصوص والشواهد
الجبرية . ثم بنى انتقاده لمذهب على مقابلة الشكوك بالدليل . . لأن العصور
الجبرية لم تنكشف قط عن إنسان يخضع في تكوينه الثابت تكوين نوع
الإنسان في صورته الحاضرة . ولم تنب من آثار الفوارى الجبرية بقية من أنواع
الأجسام الأولى ، بل يرجح أن قدم هذه المصو لا يعود بنا إلى مسافة أبعد من
متصف لطريق . كما رأى والاس شريك درون . . حيث يقف في كتابه عن عالم
الحياة . أنه لمن المحتمل جدا أن السجلات الجبرية الباقية لا تعملنا إلى أبعد من
متصف لعمر الذي عمرته الحياة على الكرة الأرضية .

ليس في السجلات الجبرية دليل ولا قرينة تزيد القول بتطور الإنسان من
نوع آخر . وأهم من ذلك أن لا يوجد أمامنا دليل يثبت تحول الأنواع في عالم الحيوان
أو من نبات ، وإن نشأه الأجنة الذي يتخذ بعض الشوكيين دليلا على التشابه

العلم بين أنواع الحيوانات دليل مكذوب ، لأن صور الأجنة الصحيحة لا تتغير هذا
الشبه . وماعدا ذلك من الصور المشابهة فهو مزور باعتراف واضع تلك الصور
العالم الألماني ارنتس مكل ، فإنه أعلن بعد انتقاد علماء الأجنة له أنه اضطر إلى
تشكك الشبه في نحو ثمانية في المائة من صور الأجنة بنقص الرسم المقبول .

وله يدع بيشوب دليلا علميا بغير تعقيب عليه ، يستند إلى أقوال العلماء
المختصين . . . مثال إن حصن الحفريات عن أقدم صورة لها ثبت من نبتة إلى نوع
الحل غير لاس ، وإن نظائر الذي قيل إنه الحق المفقود بين الزواحف والطيور
لم يتبع قط في تسلسل الحفريات حائر دو أستان ، وأيا كان نظام التطور بالنسبة إلى
الحق فالعالم الشوكي الأمين على عامه لا يتخذ مسا من أسباب الاختلاف . وكذلك
كان ولاس ميزنا بالعقل لمذكر كما قل في كتابه عن عالم الحياة ، إذ يقرر جازما
باعتقاده « إن تطوره - خلافة - ولا مناص من الاستدلال عليه ، هو ذلك العقل
الذي هو أصح وأعظم وأقوى من كل هذه العقول المفرقة التي تراها حولنا وإزاء أعيننا
لا ينس على تسيير هذه القوى العاملة في الأنواع الحية وعلى إرشادها وتوجيهها
وحسب ، بل إنه هو ذاته يتبع تلك القوى والعوامل ، وينبع ما هو الأساس
الأول لكل ما في هذه لعوالم المدببة . . .

...

ويؤخذ من متابعة المقدمات التي يستمد منها النقاش حول أصل الإنسان أنها
ترتبط بالهجن « الروحية » التي تثيرها مشكلات العالم الكبرى ، وأكبرها في القرن
العشرين مشكلة الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية ، وقد تكون المناسبة
لاستعانة النقاش تاريخية من قبل الذكريات الموقوتة بالمشكلات أو ثبات من
السين ، ولكنها إنما تستند في هذه المناسبات ببواعث الشكوك والمعارف التي
تصاحب الحروب العالمية وتقتن الاجتماعية ، ولهذا كانت نهاية الحرب العالمية الثانية
دورا من أهم أدوار البحث في مذهب الشوه بما دعت إليه من بحوث منشعة في
تاريخ البقاء وزيادة أهمية ، وفي تفسير التاريخ بالعوامل الاقتصادية والعوامل
المعركة والروحية ، وفي هذه السنة - سنة ١٩٤٥ - تدفقت الكتب التي تعرض هذه

الباحث بأقلام علماء الطبيعة وعلماء اللاهوت . ولكن مؤلفات اللاهوتيين في هذه الفترة لم تكن دون مؤيدت العلماء الطبيعيين في حجح العلم وشواهد التجربة وصدق النظر في أقوال الأنصار والخصوم . ولعل أجمعها فيما اطلعنا عليه كتاب « الله والانسان » والكون « الذي تفرغ على تأليفه نخبة من الباحثين المدينين يعرضون وجهات النظر الكاثوليكية في تحقيق كل فلسفة تبحث في الأصول ، ومنها أصل المادة وأصل العقيدة وأصل الانسان وأصل النظم الاجتماعي وما ينشعب عن هذه الأصول من البحث في مسئلة الشر وتاريخ الكنيسة ورأس المال والمادية الماركسية وغيرها من مشكلات لاسان التي تتواءم في كل زمان بأسلوب وعنوان .

...

وقد استفاد مألوف هذه المجموعة من جميع المعارك العلمية التي انتشرت بعد الحرب العالمية الأولى . لم تكن متداولة بين الكتب اللاهوتيين في الربع الأول من القرن العشرين . ومعموا في التوصلات التشريعية التي كانت جملة في الفوارق الواسعة بين تركيب قرد و تركيب لاسان . ولا سم الفوارق المميزة للإنسان . الناطق .. وهو فوام اتصال بين النوع الآدمي وخاصة الأوجاع العسا .. فهذا الفارق الرابع في الملكات العنيفة يذبله فارق دقيق في تكوين الدماغ ، يبين اسحالة الطلق بعبر هذا التركيب الإنساني الخاص بدماغ الإنسان دون سواه : فالرأس الإنساني يحتوي جميع المناطق التي وضعناها في رموس القردة ، ولكنها تخصص بمناطق أخرى تسمى بالمناطق الثانوية .. أبرزها تلك المنطقة الخاصة بمراكز الألفاظ الكلامية ، وهي مستحبة بنير الاتصال الوثيق بآجهزة الكلام من عضلات الوجه والهم ويلعوم مع جهاز التنفس سواء من جنب حركات الحس ومراكز الحس والسمع إلى أبصر كئنت .. فهناك مركز للنطق في مقدمة مراكز خركة في الوجه ، ومراكز بصرية للكلام في المنطقة الخدارية ، ومراكز سمعه في نقص الصدغي . وفقدان مراكز الحركة يتبع المحور عن الحركات المتعاقبة الضرورية لنطق بنير

تعطيل عمل الحس والشم . كذلك تمتنع آفات البصر مجزا عن قراءة الكلمة المكتوبة ، كما تمتنع آفات السمع مجزا عن فهم الكلمة المنطوقة وإن تيسر سماعها . ويصاف إلى هذه المراكز مراكز أخرى خلفية يرى بعضهم أنها مقر لأدق الوظائف لسيكولوجية . ولا يوجد غير الشبائري بين القردة المعاصرة حيوان له مناطق ثانوية ذات مقدار حد ضئيف .

....

وعلى هذه الوثيرة المطردة يؤدي هؤلاء العلماء اللاهوتيون أمارة العلم نصبي . لأبرز مواضع الشبهة في أدلة مذهب النشوء وقرائه التي ترغغ إلى قوة الدليل . فهم يوسعون الفارق غاية النوع المحتمل في حدود الفترات العلمية ، ولا يدعون فارقا حقيقيا من وضوحه وكبره وملغوا به غاية شك . وراعوا غاية البعد بين وبين مرجحات اليقين ، وم يتصوروا ذلك على الأدلة والقرائن التي يستند إليها انشورين للقول بتحول النوع الانسان من الأنواع الدنيا . بل تسليهاه كل دليل وكل قرينة تدعم فروص التحول بين نوع ونوع من خشرات والأسماك والرواحف ونظير والفقرات ، ومما المتسلقات وغير المتسلقات ..

...

وقول مذهب النشوء باعتراض شديد بين علماء الطبيعة الذين ناقشوه بالأدلة العلمية . وطلبوا من دعائه دليلا محسوسا على قبل الانتخاب الطبيعي في تحول الأنواع . ولا سيما نوع الانسان . فالعبدون عليه - صلبا للأدلة العلمية - لا يقولون عدا ولا اعتراض عن المعترضين اللاهوتيين . وقد أيدته آلاس من كبار علماء الطبيعة ونحسوا لتأييده . فكان تحمسهم له باسم حرية الرأي أشد من تحمسهم له إيماناً بحقيقتة واعترافاً بكذبة براهينه . فن هؤلاء العلماء - بل من أشدهم حاسة له - توماس هكسل حديق دارون وصهره ومنبره المذهب كله في حياته ، فإنه لم يزعم قط أن أدلة الانتخاب الطبيعي المؤيد لتحول الأنواع كانية لتقرير هذه النتيجة ،

وإنما كان يقول إن الانتخاب الصيحي يفسر لنا جملة من الظواهر والملاحظات تبقى
بغير تفسير لو لم نقبل مبادئ الانتخاب الطبيعي كما عرضها دارون بعد تعديله لآراء
لامارك. ويرى العالم البيولوجي الكبير أن نظرية انتطور على أساس الانتخاب
الطبيعي ، إنما هي نظرية مطلقة وليست بالنظرية التي نمتد على شواهد التجربة
والألفة الحسية . قال في وده على هيربرت سبنسر : « إننا لن نستطيع أن نثبت
بالمشاهدة عملية الانتخاب الطبيعي » وأن قول هيربرت سبنسر « إنه إما أن تحدث
وراثة للصفات المكتسبة أو لا يحدث تطور على الإطلاق » إنما هو دليل منطوق وليس
بالدليل التجريبي ، وهو مع ذلك ليس بالدليل المنه في قضايا المنطق ، لأن تعليل
الشيء بغير وراثة الصفات المكتسبة ليس بالفرض المستحيل .

...

وبغيت هذه العمدة عصية الحل على القائلين . تحول نوعي إلى اليوم ، قد
ينقده أحد من النشويين عند الاحتفال بالذكرى كتب أصل الأنواع (١٩٥٨)
بدع حامس لشكوك المترددين في قبول تحول الأنواع . وقد كتب دوبرازنسكي
Debrazsky أشهر المختصين بالبيولوجية الوعية فصلا عن الأنواع بعد دارون في
مجوعة : « قرن من دارون »^(١) فلم يحاول تعيين القضية ، ولكنه زاد أسبابا
جديدة لبيان الصعوبات التي تحول دون تلاقى السلاسل والتصنيفات في أرحام أمراء
الحيون المهيبة ، وزاد أسبابا أخرى لبيان الصعوبات التي تحول دون تلاقى الفردين
من نوع واحد أخذ في التباعد والاختلاف ، ومن ذلك قصص الألفة بين الكون
والإنس كلما ابتعدت أشكافا ولو بقيت ناسلتها وصيغياتها قبة للتزاوج والانقسام
إلى تمام تكوين الجنين .

...

وأحرما علم من أضرار هذه المشكلة أن البحث عن الحقبة المفقودة ، يستقل الآن
من سلسلة الأنواع إلى سلسلة النسلات Genes والتصنيفات .. وأن الأمل في
الوصول إلى هذه الحلقة من استقصاء ترويح السلاسل phylogeny أقرب في رأي

البيولوجيين من استقصاء تاريخ الأنواع ، وقد ألف الأستاذ برنارد وينش أساذ علم
الحيوان بجامعة ميونستر كتابه عن «التطور فوق مستوى الأنواع»^(١) ليشرح هذه
الفكرة ويثبت أن عزل النوع إنما يتم بانعزال نسلاته وأن البحث في تاريخ تغير
النسلات هو مرجع البحث الأصيل للوصول إلى الحلقة التي تفصل بين ماتقدمها
وما تلاها ، وتسمى شروط جديدة لنفس والوراثة فتعبر بذلك حدا فاصلا بين
نوعين .. فليس من السهل أن نتصور تحول الأنواع بعد تطورها وانعقاد أواخرها
من لوائها الموهلة في القدم ، وكنت إذا اكتشفنا سر تطور النسلات واتزانها
بخصائص التوريث دفعة واحدة أو على درجات متقاربة فما هنا على الحلقة المفقودة
في سلسلة الأنواع .

مذهب التطور في الشرق العربي

من خصائص مذهب داروين - على ما يظهر - أن بشيع على نحو واحد قبل الوهيف على شروحه وبراهينه . وأن يثير ضروبا متضاربة من الاعتراض في مواطن العبادة والثقافة العامة .. فإنه لقي في الشرق العربي مثل ما لقيه من التحريف والاعتراض في البلاد الأوربية ، وتتابعت أدوار السماع به ثم الاشعة عنه ثم الرد عليه بين المفكرين وقراء لهم الشرقيين كما تابعت قبل ذلك بين مفكري الغرب وقرائه . وتكرر هذا كله في الشرق العربي بعدة أمثلة الأولى . وبمقتضى نسبة عن حقائقه إلا بعد انقضاء المفاجأة التي يقتر - كما أسف - أنها مقدمة لابد منها وأثر من آثار الصدمة شعورية لفجأة لا محصاة .

وقد تصدى للرد عليه - في الشرق الاسلامي عامة ، والشرق العربي خاصة ، نخبة من مفكرين وقادة الإصلاح والمجتهدين من أتباع جميع الأدب . انكناشوه كما شاع لأول وهلة بين ثوريين من قبل كأنه مذهب يسلمه إنكار الخلق . يزعم أن لقوة جود البشر أجمن . فكل إنسان حديث فهو نسل متأخر من قديم .

وقلما يتصور القارئ العربي أن مذهب كالمذهب التطور يشيع في الشرق العربي قبل مائة سنة ، ويتصدى للرد عليه عدد من الكتاب كذلك العدد الذي بقيت له بعض كتاباته وانطوى أكثرها في زوايا المطبوعات المهجورة من المصنفات والنشرات لصحفية .. لأن القارئ العربي يحسب أن مذهب التطور قد وصل إلى الأمم الشرقية وهي في « جامعية » لا تبلغها دعوة ساء أو مفكر من أبناء الأمم الأجنبية . ولكن الواقع أن « جاهلية » القرن التاسع عشر - تكن في شرقنا العربي حجابا دون مذهب الفكرية التي يضع عليها الأوربي ثقافته في حينه ، وم يكن مذهب كالمذهب التطور لينزل في حيز محدود بين جدران وطن واحد وهو يحدث عن نسب الإنسان حيثما كان . فزمن لم يتحدث فيه الناس عن شيء كما تحدثوا عن مدخر الأمم بالأمم الإنسانية وبالأنسب التي يدعيها السادة لأنفسهم وينكرونها على ترغاي المستعبدين .

وستختار في هذا الفصل أمثلة من مناقشة المذهب كما فهمه في ذلك العصر أصحاب الاجتهاد ورواد الفكر من المسلمين والمسيحيين ، ومنهم أهل السنة والشيعة . وأتباع الكتس الشرقية والغربية في بلاد العالم العربي ، وقد وصلت أصدااء الردود التي كتبها المشهورون من أولئك المفكرين إلى أطراف البلاد الاسلامية في افند والصين

قال السيد جمال الدين الأفغاني من أئمة المصلحين من أهل السنة في كتاب الرد على الدهريين :

« .. رأس القائمين بهذا القول داروين وقد ألف كتابا في بيان أن الانسان كان قودا ثم عرض له التفتح والتدريج في صوره وتلدريج على تنال القرون استطاعة وتأثير التفاعيل الطبيعية الخارجية حتى ارتقى إلى برزخ أوربان أو تان ، ثم ارتقى من تلك الصورة إلى أول مراتب الانسان فكان صنف النيمس وسائر النوج ، ومن هناك عرج بعض أفرادها إلى أفق أعلى وأرفع من أفق الزنجيين فكان الانسان القوقاسي ، وعلى زعم داروين هذا ، يمكن أن يصبر البرغوث فيلا بمرور القرون وكمر لدهور ، وأن يقلب القليل برلونا كذلك .. من سئل داروين عن الأشجار القائمة في غابات الهند والنباتات المتولدة من أزمان بعيدة لا يحددها التاريخ ، إلا طنا ، وأمرها تضرب في بضة واحدة وفروعها تذهب في مواء واحد وعروقها تسقى بماء واحد ، فالسبب في اختلاف كل منها عن الآخر في بنيتها أو أشكال أوراقها وطولها وقصره وصحة ورقه وزهره ثمرة وطعمه ورائحته وعمره ، فأنى فاعل خارجي أثر فيها حتى خالفت بنيتها مع وحدة المكان والماء والهواء ٢٠ .. أظن لا سبيل إلى الجواب سوى العجز عنه .. »

« وإن قيل له هذه أسماك بحيرة أورال ومحركسين تشاركها في المأكلة والمشراب وتسايقها في ميدان واحد ، ترى فيها اختلافا نوعيا وتباين يعبد في الألوان والأشكال والأعمال - فما السبب في هذا التباين والتفاوت ، فلا أراه ينجأ في الجواب . لا إلى الحصر .. »

وهكذا لو عرضت عليه الحيوانات المختلفة التي والصور والقوى والخواص . وهي تعيش في منطقة واحدة ولا تسلم حياتها في سائر المناطق من الحشرات امتيانية

في الحلقة ، المتباعدة في التركيب ، المتولدة في بقعة واحدة ، ولا طاقه لها على قطع المسافات البعيدة .. فإذا تكون حجتها في علة اختلافها .. بل إذا قل له أى هاد هدى تلك الجراثيم في نفسها وخذاجها .. وأى مرشد أرشدنا إلى استتمام هذه الجوارح والأعضاء الظاهرة والباطنة ووضعها على مقتضى الحكمة وإبداع كل منها قوة على حسبه ونوطها بكل قوة في عضو أداء وظيفته وإعداد عمل حيوى بما عجز الحكماء عن حركه سره ، ووقف علماء الفسيولوجيا دون الوصول إلى تحديد منفعه ، وكيف صارت الضرورة العمياء مما تلك الجراثيم وماديا خيرا لفرق جميع الكمالات الصورية والمنوية .. فلارب أنه يقع قبح القنفذ ويتكسب بين أمواج الخبرة ، يدفعه ريب ويتلقاه شك إلى أبد لأبدى ..

وكاننى هذا لمسكن وما رماه في مجاهيل الخرافات إلا قرب المشابهة بين القرد والانسان ، وكان ما أخذ به من الشبهة الواهية تهبة يشغل بها نفسه عن آلام الطبيعة وحشرات السماء

« وإنا نورد شيئا مما تمسك به ، فن ذك أن الخيل في سبيرييا وبلاد الروسية أطول وأغزر شعرا من الخيل المولدة في البلاد العربية ، وإنما علة ذلك لضرورة وعدمها . وتقول : إن السبب فيما ذكره هو عين السبب لكثرة النبات وقتله في بقعة واحدة لوقتتين مختلفين حسب كثرة الأمطار ولتباينها في ترويضها ، توجد علة التحلة ودقة العود في سكان البلاد الحارة .. والضخامة والسمن في أهل البلاد الباردة بما يعتري البدن من كثرة التحلل في الحرارة وقتله في البرودة .

« ومن وهبته ما كان يرويه داروين من أن جماعة كانوا يقطعون ذئاب كلابهم ، فلما واطبوا على عملهم هنا قرروا صارت الكلاب تولد بلا أذنان .. كأنه يقول حيث لم تعد للذئب حاجة كتبت الطبيعة عن هيئة ، وهى صمت إذن هذا المسكين عن سماع خبر العبرانيين والعرب وما يجررون من احتكاك ألواح من السنن ، لا يوجد مولود حتى يمتحن وإلى الآن لم يوجد واحد منهم محتويا إلا لإعجاز

« ولما ظهر خياعة من متأخري الماديين فساد ما تمسك به أسلافهم ، بدلوا آراءهم وأخذوا طريقا جديدة .. فقالوا ليس من الممكن أن تكون المادة العاربة من الشعور مصدرا لهذا النظم المتقن والهيئة السبعة والأشكال العجيبة والصور الأنيقة

وغير ذلك مما خفى سره وظهر أثره ، ولكن العلة في نظام الكون علويه وسفليه .. والموجب لاختلاف الصور والمقدار لأشكالها وطورها وما يلزم لبقائها تركيب من ثلاثة أشياء : متحر ، وفيرس ، (التلجائنس) ، أى مادة وقوة وإدراك ، وضوا أن المادة بما من القوة وما يلامسها من الإدراك تجلت وتنجلى بهذه الأشكال والهيئات ، وعندما تظهر بصورة الأجساد الحية نباتية كانت أو حيوانية تراعى بما يلائمها من الشعور وما يلزم لبقاء الشخص وحفظ النوع ، فتشبه لما من الأعضاء والآلات ما ينفي بأداء الوظائف للشخصية والزجاجة مع الالتفات إلى الأزمنة والأمكنة والفصول السنوية . هذا أنفس ما وجدوا من حية شعبيهم تعامل به ما دخلوا ألف حشر وخرحوا من ألف نفق ، وما هو أقرب إلى لعقل من سائر أوهامهم ولا هو بالمنطق على سائر أصولهم ، فأنهم يرون كمائر المتأخرين أن الأجسام مركبة من الأجزاء الديمقراطيةية - نسبة إلى ديمقراطيس - ولا يضفى رأيهم الحديد في هذا النظام الكونى على رأيهم في تركيب الأجسام ، وذلك لأنه يلزم عن القول بشعور المادة أن يكون لكل جزء ديمقراطيسى شعور خاص ، كما يلزم أن تكون له قوة خاصة يفصل بها عن سائر الأجزاء ، إذ لا يمكن قيام العرس الواحد وحدة شخصية بمحملين ، فلا يقوم علم واحد بجزئين ولا بأجزاء

« وبعد ذلك فأتى سائلهم كيف اطلع كل جزء من اجزاء المادة مع انفصالها على مقاصد سائر الأجزاء . وبأية آلة أفهم كل منها بإقفا بما يتوهم من مطلبه ؟ .. وأى برهان أرى سنان - مجلس شيوخ - عقدت للمشاور في إبداع هذه المكونات العالية التركيب البديعة التأليف ؟ .. وأتى لهذه الأجزاء أن تعلم وهى في بيضة المصفور ضرورة ظهورها في هيئة طيريا كلى الميوس فن اولىب أن يكون له منقار وحوصلة تلحج في حياته إليها ؟ ..

.. .

وبعد كتابة « كرد على الدهرين » بحوثا لثلاثين سنة ، ظهر كتاب نقد « فلسفة دارون » مؤلفه الشيخ « محمد رضا آل العلامة الشق لأصفهائى » وهو باحث فاض من علماء الشيعة بكرىلاء العلى . تحرى النظر في مجموعة وافية من مراجع مذهب لشواه تعريه والأفرنجية التى وصلت إلى الشرق لإسلامى بعد كتابة « الرد على

الدهريين ، ولم يفتح بما اطلع عليه من هذه النسخ ، بل أرسل في طلب غيرها من المراجع المستحقة ، ولكنه ألف كتابه ولم يتطرق وصولها إليه لولا «الناث الذي» كما جاء في مقدمة الكتاب حيث يقول إن ديون وسائر رؤساء هذه الفلسفة ألفوا كتابا غير موحدة عندنا وكان الحزم تأخر تصنيف هذا الكتاب إلى زمن وصولها لولا الباعث الديني وطننا أنه يوجب علينا سارعة ولا يعد أن يكون قد سنا صغرى دليل قد فزع هؤلاء من إسمائه أو كبرى حجة مذكور في كتبهم برهانا ، وأنا أقترح عليهم أن يجاروا بما يغدونه منه ومن أمثاله لنظر فيه ، ولهم عينا أن نستعمل الإنصاف لا المكيدة .

وإن قصد المؤلف بالباعث الديني أن يقصر دعوته على سقطة آراء التي تخالف الديانة الإسلامية دون سائر الدينات . وكذا أراد أن يخلص أدلة الاتحاد التي تعارض الإيمان بالله وبالعبادة لاهية على بحرهما ، وقد قل في كلمته الخاصة بالمؤمنين : «ليعلم أن كتابي هذا موضوع للدعوة عن الدين لخص في قباب الماديين الحضة ، لا للانصار لدين على دين .. وقد تبنى أدفع من منصف عن أديان لا أنتصبها ومذاهب لا أقول بها . لأن أحد هؤلاء لا يشك في بلا وقصد : لب الأديان عامة ولا يزي على شريعة إلا ليسى زراؤه من شرع قسنة ... وأهدف المؤلف مذهب الشيعة ، ثم يحسبه من مذاهب الاتحاد وتتمطيل لأن القول بالشيء لا يقتضى إنكار الخالق وإنما ينسب إليه الاتحاد من تفسيرات الماديين لتقديمه على الوجه الذي يوافق نتائجهم المقررة عندهم قبل ظهوره ، فيقول المؤلف عن فلسفة التشبه والارتقاء إنها ليست من بدى الدين . إذ لدى يجب علينا اعتقاده هو أن جميع الموجدات بأراضيها وسهتها وما فيها من صنوف المخلوقات من نباتات وحيواناتها ، والبشر على صنوفها وحرف لغاتها . صاع إليه واحد قدر حكيم قد وضع كل شيء علما وأتقنه سنا .. حتى جميع الأصناف من جميع الأنواع عن قصد واحترار ، وهذا أمر متفق عليه في جميع الأديان . وأما كيفية الخلق وأن هذه الأنواع كلها خلقت خلقا مستقلا ، ووجدت من كثر عدده ابتداء ، وأنها لم تتغير ما وجدت عليه في أوائل الخلق ، فهذا أمر لم يرد فيه نص صريح من الكتاب ولا مترثر من السنة ، وسواء كانت آباء الجنس حملا أو كانت ضدود تنق في الماء .

والجسد الأعلى للقبيل فيلا أو «سنوفا» يطير في الهواء ، فإن أدلة الصنع عليها في الحالين ضامرة ، وفيها على وجود الصانع الحكيم آيات باهرة . ففرصة الملاحظة بهذه الآراء وجعلها أساسا للإلحاد من أغرب الأشياء ،

لم يقو المؤلف إن هذه الآراء ليس فيها إلا بيان ترتيب المخلوقات وكيفية الصنع فيها ، رمى كان أهل الدين يتكبرون ذلك ويدعون أن الله تعالى خلق جميع الأنشاء في وقت واحد خلقا مستقلا عن الآخر .. وهم يرون الله تعالى باطيف حكمته وبديع صنعته يخلق القمر من الشجر ، والشجر من النواة ، ولا يحس العنب حلوا إلا بعد ما يجعه حامضا ولا يجعله حامضا إلا بعد ما يجعله مرا .

ويستعير المؤلف إلى تخيير آراء الشوليين الذين آمنوا بالخالق ، ثم يرجع إلى أقوال الأقدمين من اصحاب الذين تنسبوا إلى القردة كما انتسبوا إلى غيرها من الطيور ، ويرجع بعينه ذلك إلى أقوال أئمة المسلمين الذين عرلوا التشبه بين الإنسان والقرد ، ولم يذهبوا مذهب ديون في تحويله على وجه التشبه وإعراض عن وجوه الخلاف فيقول : «إن أئمة المسلمين وعلماءهم ذكروا ما هو أغرب وأقرب ، ويستشهد بكتاب التوحيد الذي أملاه الإمام جعفر الصادق عن الفضل بن عمر الجعفي ، ومنه على رواية المؤلف : « تأمل خلق القرد وشبهه بالإنسان في كثير من أعضائه ، أعنى الرأس والوجه والمكتين ، وكذلك أحشاه أيضا شبيهة بأحشاء الإنسان ، ويخبر مع ذلك بالذهن والنفطة التي بها يفهم من شأنه ما يؤمن إليه ، وعكس كثيرا مما يرى الإنسان بفعنه . حتى أنه لقرب من خلق الإنسان وشيائه .. أن يكون عروا للإنسان نفسه فيعلم أنه من طينة لبهايم ومسحها ، إذ كان يقرب من خلقها هذا القرب ، وإنه لولا فصلة فضلها في الذهن والمقل والنطق كان كجف لبهايم .. على أنه في جسم القرد فضولا أخرى تفرق بينه وبين الإنسان كالحظم والذنب المسدل والشعر الجال للجسم كله ، وهذا لم يكن مانعا للقرد أن يلحق بالإنسان لو أعطى مثل ذهن الإنسان وعقله ونطقه .

ويستقل المؤلف إلى كلام الدهري ، إذ يقول عن القرد إنه « أشبه الإنسان في غالب حاله ، فانه يقبض ويقلب ويغني وعكس وتتاول أثنى يده وله أصابع منصفة إلى أنامل وأظافر ، وقبل التلقين والتعليم ويأمن بالناس ويمشي على رجليه

جنايسيرا ، ولشعر عينيه الأسفل أهداب ، وليس ذلك لشيء من الحيوان سواه
فهو كالإنسان ، وبأخذ نفسه بالزواج والغيرة على الإماء ، وهما خصائص من
مفخر الإنسان ، فذا زاده الشبق استثنى بقبه ، وتحمل الأنثى أولادها كما تحمض
انثى .. وفيه من قبول التأديب والتعليم ما لا يخفى ..

ويذكر المؤلف أن غرور الصفا ، بلغنا بوصف هذه المشابة ما لم يبلغه دارون ،
حيث قالوا إن الفرد ، لقرب شكل جسمه من جسد الإنسان صارت نفسه تحاكي
نفس الإنسانية ، لم يعقب على هذه التشبيهات جميعا ، فيقول إن الإنسان -
كما يشابه الفرد في ألبه - يشابه غيره من الحيوان في غيرها ، بل لعل في الحيوانات
شيء من شبه الإنسان أقساما لا توجد في العليا ، فلا يصح الاعتماد على مجرد
شبهه .. وهذا الأستاذ الشهير «كوفيه» يقول إن أدراك الفرد ليس أثر من
درك الكلب الاقبلا .. وإذا سلمنا أن من لوازم المشابة التحول ، فكيف نعين
شبه الإنسان عن حيوان شأ عنه الفرد ؟ طلع الإنسان تحول فردا .. وهذا ما
عز عليه الذكر احكيم .

وبعد مناقشة الشكك في شبه الضمير بين الإنسان والفرد ، مضى ناقش
تحول الأخرى التي يستند إليها النشويون للقول بتحول الأنواع وتحول النوع
لإنسان من بينها ، عن أصله المشترك بين وبين انفقاريات العليا ، فتبع في مناقشته
عن هذا المنهج الذي يستند الدليل من أصول الجدل المنطقي ثمة ومن تجارب التواقع
ثمة أخرى ، وأهدته مطالعته لمخرقة تراجع المذهب .. لم يخطئ مواضع الحجة
لواقعية أحيانا ، مع عتاده الغالب على منزع القائلين الجديدة . ومن قبيل ذلك أنه
سند إلى دليل من أقوى أدلة النشويين وهو بقاء الأعضاء الأثرية - كالثدي
- في ذكور الإنسان ، فتساءل : « لا أدري لماذا بقي أثر عار الخنثى ضمرا في
إنسان ، ولم يبق فيه هو أدون منه في سلم الارتفاع كذوات الحمار » ولم ينس أن
يستدرك على هذا الاعتراض بما أسنده إلى ما قاله الشيخ الرئيس في الشفاء « إن
أقل الذكر له ثدى كما للإنسان ، وذكر ذوات الحمار لا ثدى لها إلا ما يشبه
منهتها وينزع إليها كما يعرض مرارا في خلل .

وجملة رأى مؤلف أن ما يسمى بالأعضاء الأثرية يدخل في باب

« الشفوذات » التي تعرض لتكوين بعض الأحياء ، وهي أجنة في بطون أمهاتها .
أو تعرض لها خلال نموها ، وعدد من ذلك ما يولد وله أربع أيدي ، أو ما يولد وله
جوف واحد ورأسان وأربع أقدام ، أو ما يولد وقلبه في غير موضعه ، ثم قال
متسلا : « فهل يمكن تعليل هذه الشواذ المشنوعة بحيوانات كانت كذلك في
المصور الجيولوجية فانقلت إلى هؤلاء النساء بناموس « الأتافيسيم » ؟ .. فإن لم
يمكن ذلك فلتكن الشواذ التي فيها بعض الشبه بالحيوانات من هذا القبيل .

ونصح المؤلف في نقد الانتخاب الجنسي - وهو سبب هام من أسباب التطور -
كمنهجه فيها تقدم ، فهو يبدأ بالانتخاب الجنسي في النبات ويسأل : كيف يقع
الانتخاب الجنسي بين النباتات التي لا يتعرف تلتقيها على الحشرات والطيور ؟
وكيف تميز خشرات والطيور ما هو جميل وما هو أجمل ؟ .. ثم يقول : « إن
الحيوانات قليلة الإدراك لا في الصنوعات الجميلة من أخال حتى أن بعضهم جعل
ذلك أعظم فارق بين الإنسان وبينها . وكان الأستاذ مكسلي ممن يذهب هذا
المذهب .

قال : « ثم جب أن هذه الحيوانات المحقة علوية الهوى والغرم ، وهما
بالجمال كعروة بن خزام .. ولكنها لا تريد مغزلة بل تطيب رزقها المقسوم لها ،
وعند أي بات وحده لقت حسنا كان أو قبيحا فلا أدري بم يعمل هذا الحسن
والانتظام في الفواكه والأثمار وما فيها من انطم المحبوب والكمه الطيبة ونحوها مما لا
يوجد إلا بعد التقيح .

ثم انتهى المؤلف على أساس مذهب التحول ، لأنه قائم على افتراض تعدد
الأنواع بعد انفرادها أو قتلها ، وليس هذا الافتراض باللائم ضرورة من قياس العقل
ولا من نتائج الواقع : « ومن الطريف في هذا الرأي أنه كما يمكن أن يعطى به القول
بانحلال أصول الأنواع أو قتلها ، كذلك يمكن القول بعكس ذلك والتعليل له أيضا ،
فيقال إن أصول الأحياء كانت في بدء الخلق أفرادا متباينة بأقصى ما يمكن من التباين
ومدم التشابه ، فلم يزل كل حي يختلف تسلا يشبه بناموس اوراة ويلايه بناموس
البانية لكن بما يقره إلى فرد آخر ، فلم ترك تلك البانيات مع الأجناد تريد
المشابهة مع سائر الأفراد ، وتنازع البقاء بلاشي الضعيف ، والطبيعة تتخب
الفرى حتى صارت التباينات التي قلدها مع غير المشابهات ثمة ، فتألفت من

الأنواع الموجودة .. وله شواهد على مذهب هؤلاء ، فالحية مثلا تعد الآن من جنس الدبابات ولا يجتمع معها في الأصل بل أصلها من ذوات الأرجل ، وقل مثله في الحيوانات المنحطة التي يذكرها بخر وغيره ، فانها لأن تولد جنس المنحطات وهي بعيدة في الأصل منها .. ١ .

قال : « وهذا الاحتمال .. وإن لم أجد أحداً قال به في أصول الأنواع ، ولكنه أحد القولين المشهورين في أصل اللغات .. وعند العلماء مذهبان شهيران : الأول أن لغات البشر منشأية ، وهي كلها من أصل واحد .. وهذا الأصل قد فرغ وتفرع خولت منه لغات البشر المختلفة ، فإنا اللغات سوى لغات من لغة واحدة ولكنها بعدت عن الأصل كثيراً وتغيرت بالزيادة والنقصان والتحت والحلف حتى بعدت بعضها عن بعض هنا العدد التاسع ، وتعتبر رد بعضها إلى بعض لفقد الحلقبات الكثيرة من بينها . والمذهب الثاني أنه كانت للغات البشر أصول مختلفة بحسب عدد طوائفها ، وأنه مع الزمان قربت هذه اللغات بعضها من بعض فتمازجت ونشأبت بمزاج أصلها ونشأبتهم غ .. وعند الكاتب أن المذهب الثاني أقرب إلى الصحة وقدرة على حل المشكلات من الأول .. »

وتابع المؤلف بحثه في النشوء ، فاستمرده إلى البحث في الارتقاء وسأل : « أي معنى لارتقاء ذوات الأربع عن الطيور ، وارتقاء الإنسان عن ذوات الأربع ، مع اشتراك الكل في حصول التعير ؟ .. »

وانتهى المؤلف إلى أن للذهب كله ناقص الأسناد ، لا توجد فيه حجة قاطعة غير قرائن الترجيع والتغليب ، ولا غنى له عن مزيد من البحث والتغليب ، كما قل بعد أكثر من خمسين صفحة على هذا المنهج مستندا إلى قول فيرسو وألغام الألمانى : « أنه في بعض طوائف الناس صفات يشتركهم القرد فيها ، كما في بروز الفك وفطس الأنف مما يجعل العلاقة قريبة بين تلك العويف والقرد حتى يحتمل ارتقاؤها من القرد ، ولكن بين الاحتمال واقطع بونا شامعا لأن الصفات المشار إليها لا تقوم نوع القرد بل المقوم له خواص أخرى ، وكل قصة من جلده كافية لتبين نوعه من غيره من الأنواع ، ولا أظن أن واحدا من المشرحين يرناب في ذلك : والفرق بين الإنسان والقرد واضح جدا حتى أن كل قطعة من الواحد كافية ليستدل منها على البرء

المنقطعة منه .. فالأدلة على النشوء القليل قاصرة جدا لا يفي عليها حكم ، ولا بد من أن يزيدنا البحث والتغليب للموقف على أدلة أخرى قوية .. »

وربين من مراجعة « المكتبة الشوية » في الشرق العربي أن لاهنام بالذهب كان على أشده بين أتباع الكنائس الكاثوليكية والكنائس الانجيلية ، لأنها هي الكنائس التي تصدى علماء اللاهوت منها لمناقشة مذهب دارون عند اعلانه في موطن ظهوره ، وشاركهم في ذلك علماء الطبيعة المسيحيون ممن أنكروا المذهب واستلوا في انكروا إلى الأدلة العلمية . وطالبوا النشويين بمزيد من الأدلة القاضية لإثبات نظرياتهم لأنها نظريات تقض بعض المقررات الدينية ، ولا يمكن في مثل هذه الحالة أن تستند النظرية إلى الترجيع والتغليب أو إلى الظن والتقدير ، وقد يعزى إلى هذا السبب كثرة الدراسات التي تعرضت لمذهب النشوء من الناحية الدينية ومن الناحية العلمية بأقلام فضلاء الكنائس الكاثوليكية والانجيلية من كتاب اللغة لعرية ، وخاصة في البلاد التي كان للاهوتيين بشرون على معهد التعليم فيها وبأخذون بزمام شأونها وأديها .

ونحن نختار من الدراسات النشوية التي كتبت باللغة العربية ، ولا نستقصيها لكثرتها وخروج معظمها عن موضوعه .. ولم نجد بينها ما هو أولى من دراسات الأساتذة ابراهيم الحوراني ، ولأب جرجس فرج صنيح الماروني ، والأسقف خير الله اسطفان ، والدكتور سليم سوريال ، ومنهم من كتب عن هذا المذهب قبل خمس وسبعين سنة ، وأحدثهم كتابة عنه من تصدى لناقشته بعد ظهور كتب الدكتور « شبل شميل » في موضوعه . وهي مؤلفة للنشويين المنكرين للأديان .

والأستاذ ابراهيم حوراني - وهو عالم لغوي مطلع على البحث العلمية - ألف في الرد على مذهب دارون رسالة « مناهج المحككة في نقي النشوء والارتقاء » ثم اتبعها برسالة « الحق البين في الرد على بطل دارون » وطبعها بيروت (سنة ١٨٨٦) ودا على مناقشة الدكتور « شبل شميل » رسالته الأولى ، نصب حملت الكبرى على سوط النص في نذهب وهو انتقاده إلى الدليل المقاطع ونعويله

على الشواهد التي توحي بالرأى ، ولا تتأصل الشكوك أو تسكت لمعترض
امطالب بدليل لا يضعفه الاحتمال .

وقد أثر الأستاذ حوراني أن يؤخر رأيه حتى يسوق بين يديه آراء علماء الطبيعة
المختلفين لدارون في القول بتحول الإنسان عن غيره من الحيوان : قال : ان العلماء
لم يشنوا مذهب دارون ، وكذلك نفوه وضعوا فيه مع عمهم أنه بحث فيه عشرين
سنة ، ومنهم العلامة ونشل مع أنه من أشبه الناس ميلا إلى القول بالارتقاء بفعل
الله .. ومنهم العلامة ولاس قل ما خلاصته أن الارتقاء بالانتخاب الطبيعي لا
يصدق على الإنسان ولا من القول بتخلقه رأسا .. ومنهم الأستاذ فرخو قال انه يتبين
لنا من الواقع أن بين الإنسان والقرود فرقة بعيدا . فلا يمكننا أن نحكم بأن الإنسان
سلالة فرد أو غيره من البهائم . ولا يحسن أن نقوله بذلك .. ومنهم « ميفرت » قال
بعد أن نظرت في حقائق كثير من الأحياء أن مذهب دارون لا يمكن تأييده وانه رأى
من آراء الصيادين .. ومنهم علامة فون بكوف . قال بعد أن درس هو وفرخو
تصريح المقابلة بين الإنسان والقرود أن الفروق بين البشر والقرود أصل واحد جدا

ومنهم العلامة أغاسيز : قال في رسالة في أصل الإنسان نليت في ندوة العلم
المذكورية ما خلاصته ان مذهب دارون خطأ علمي باطل في الواقع ، وأسلوبه
ليس من أساليب العلم بشئ ولا طائل تحته .. ومنهم العلامة هكسلي وهو من
اللائحية وصديق لدارون . قال أنه بموجب ما لنا من البيانات لم يبرهن قط أن
نوعا من النبات أو الحيوان نشأ بالانتخاب الطبيعي أو بالانتخاب الصناعي ، ومنهم
العلامة تدل وهو كهكسلي قال انه لا ريب في أن الذين يعتقدون الارتقاء مجهلون
أنه نتيجة مفدمات لم يسلم بها . ومنه لحقني عندى أنه لا بد
من تغيير مذهب دارون ..

ويقسم الأستاذ حوراني أنصار مذهب التشو إلى ثلاث فرق : معطلة ولا أدريّة
واحية .. وأما المعطلة فهي التي نفت الخلق سبحانه وقالت تقدم المادة .. وأما
اللائحية فهي التي لم تصرح لئى الخلق ولا لآلياته ، وأما اللاحية فهي التي اعترفت
بالواجب تعالى ، وقالت بأنه علقت المادة والحبة وانفسست هذه الفرقة إلى اثنين ،

ضبط إحداهما الإنسان ابن القرود أو صنوه ومنها داروين ، وقالت الأخرى بأن الله
خلق لإنسان من البدء إنسانا ومنها العلامة ولاس ، وعلماء هذه الفترة أصحاب
التشوء الإلهي الذي قلت بإمكانه وصرحت بعدم البرهان على وقوعه وبأن عليه
اعتراضات لم تدفع دفعا متعاضدا .

ثم أورد الأستاذ حوراني احصاء بعض علماء الخفريات عن الأنواع التي وجدت
في باطن الأرض ، فقال ان ثمانية وعشرين في المائة منها أنواع لم تتغير ، وسبعة في
المائة أنواع مهاجرة ، وخمسة وستين في المائة لا سلف لها . وأما الأنواع التي نشأت
بالتغير أو الأنواع الجديدة ، فلا وجود لها في شئ من بقايا الخفريات .

ويرد لأستاذ حوراني عل استدلال انشويين بتشابه الأجنة بين الإنسان وبعض
الحيوان ، فيقول ان علته هذا التشابه « ساطة التكوين وقصر النظر .. بدليل أن
النباتين يعظم على توالى اقترابها من كمال التكوين ، فلا يشأ من يوضح الإنسان أو
أجنسته سوى أناس » ولا ينشأ من بفترة اللززة إلا لززة .

ويجمل لنشويين إلى بحث التيرانولوجيا - أى المشوهات - تفسير
الأعضاء الأثرية التي تثبت بعد ولادة الجنين ، ومن أمثلتها « الأعشى » نى من له
ست أصابع وهو من أبسط الأمثلة ، والأشوء المزدوج كهيكل وجودي وهما
الأختان المتنازيتان المشهورتان ، كانتا ملتصقتين بالمشين والأفخاذ والأحشاء ولدتا
سنة ١٧٠١ وعاشتا اثنتين وعشرين سنة وكانتا مختلفتي السجايا والأخلاق

وقال عن الانتخاب الطبيعي إنه لا يمكن « أن يكون أس الارتقاء لداروين
لأن الطبيعة إنما تؤثر في شئ وجود ، وليس ما أن توجد المعلوم . فيمكنها أن تعمى
نعيون .. ولكنها لا تستطيع أن توجد البصر » ويتنص مذهب داروين أن لا تجمع
الأنواع الدنيا والعليا بل تتعاقب وتسبق لأولى الثانية أبدا . ولكن ذلك الاجتماع
ليس في الممرات والأحشاء .

وأضعف ما في ردود الأستاذ حوراني قوله عن قدم الانسان ، إذ يقتضى
مذهب داروين أن يكون الإنسان قديما جدا ، ولكنه تبين لأشهر العلماء وأكابرهم
من الشيويين وغيرهم أنه أحدث الأحياء وأنه كان منذ بضعة آلاف سنة . وأثبت
علامة درسون أنه كان في ثلثي العصر قبلدي وهو المعروف بالآثر الحديثة .

وفصل ذلك في خطبة له في الانسان قبل زمن التاريخ .. وقال الدكتور هويدن :
نظرت أربع فرق مستقلة من الجيولوجيين في زمن نشوء الانسان فاتفقت على أنه نشأ
منذ ما بين ستة آلاف وسبعة آلاف سنة ...

• • •

وفي إن احتدام لمناقشة بين منكري المذهب ومؤيديه . أصدر الأب جرجس
فرج صفيح الماروني مدرس الفلسفة بالمدرسة اللبنانية في قرية شبران (١٨٩٠) كتاباً
نح به مناج الخراف بين ... حتى أحدهم بالإنسان القردى وسمى الآخر
بالإنسان الآدمي . وأدرك الخجاج بينهم على هذا المثال . مع اختصار بعض
التفصيلات :

آدمي - أين نجدون أشكال الاحتمال من يد قرد إلى رجل إنسان .. أقبل
عشر على ذلك أحد علمتكم . فإن لم تعبر على شيء من ذلك . فالإنسان القردى
لا يكون له وجود ..

قردى - إن المباحث الباثولوجية « الخفية » ونحن يقال لم تلت بما
يعرب عن تسلسل بين الانسان واقرد أو أحد أنواع الحيوانات .. على أن أسألتنا
قد أجمعوا على أنه من المحتمل أن من الحيوانات التي على شكل حصان البحر ما
يتحول إلى حيوان قوامه على شكل قوائم خترير . وإن منها ما قد يتحول إلى المعر
ومنها إلى الخرفان .. الخ

آدمي - فإن كان ذلك من صوب احتمال لا من أمارات البقين ، فأين
العلم الخفي الذي تقولون عليه ؟ ..

قردى - نعم .. إننا لم نجد إلى الآن أثر إلى الانسان القردى ، غير أن
العلم لم يته نضاه

آدمي - ولكن ماذا يكون هذا العلم الذي يقضي بخلاف الواقع .. قلنا نرى
الأنواع لا تتغير عن ذاتها وإن كثرت في الانسان ، قلنا نت لا فارق بين النوع
والنفس أسكتك للعلامات الفزيولوجية ونحن نحصيها في أسرارها النتائج

القردى - ومن يمكنه أن يرسم تخوم النوع والعلماء لا يكادون يتفقون على
شيء منه ؟ ..

آدمي - أو يكون الجبل في أصل شيء أو في غنائه حجة في إنكار وجوده .
أفتفقه ما للعلامات الجوية والأرضية من الأسباب والعلاقات .. ونحن مع ذلك لا ننكر
وجودها .. إننا علم أن المولود من قران القرس والحجر لا يكون إلا عاقراً ، فنقول :
لا بد من فرق جوعى في مولده .. أفجهت في رسم حدوده يمكننا من إنكار وجوده
القردى ... إلأني أعرف من أصحابكم من يقول بإمكانية مذهب التحول .

آدمي - لا نجعل في البعض من أصحاب الايمان يجربون أن يوفقوا بين
التحول والايمان . فيقولون . إن الله سبحانه قد جبل آدم من تراب مد غركه كثير
من المولدين من الخراف إلى آخر حيوان ذي أربع قوائم ، فحدث الله هذا الحيوان
الأخير من السلسلة شحولة وهو القرد ونخ به النفس البشرية . وسلبه فيكون آدم
نتاج عمل تحول وحائق معه . وأبين لك في غير مذوعة كيف يجمع هؤلاء في
الضلال . ومن العجيب كيف لا يدقهون أن هذا المذهب إنما نظمه الفلسفة نفسها
كما سبق بيانه

القردى - أو هل تنفي الفلسفة لو افترضنا تدخل الله عند النقل كل من
الأنواع كما تدخل عند خلق الانسان ؟ ..

آدمي - إذا افترضنا تدخل الله سبحانه كان لا بد من تعويض نفس
نفس .. أما هذا التعويض فيتم إما بوجود القرد الأول الذي تكون أو في بديهة
الانتشار ، وكلا الافتراضين لا يتحقق . فما الأول فلأنه يفترض نقل الحى ثم إقامته
أو ملائحته ثم إقامة آخر به

قردى - قرات في كتب بعض أصحاب مذهب التحول أن الماهر إنما ينتج
من عمل صدفة يسود عليها الانتخاب الطبيعي . فما قولك فيه ؟ ..

آدمي - قد سبقه إلى مثل هذا القول غيره من الملحدين الذين يؤيدون
المادة .. ونحن نوقفك على أدلة تذكر ما يحولون عليه من فضل الصدفة في تميز
الكائنات .

إن الصدفة لا تقع إلا في الأشياء التي يمكن لها أن تكون على خلاف ما هي
تقد يمكن للطاولة التي يصنعها النجار أن تكون مربعة أو مدورة ، أما الأشياء التي
هي من الضرورية ، ودائما ، فلا يمكن لها أن تحدث بطريق الاتفاق . ولكن من
الأشياء ما لا يمكن له أن يكون على خلاف ما هو ، مثل الجواهر السيفة وذوات
الأشياء وحقاتها ومثل الأعمال التي تصدر عن فعل لا يصدمه في فعله شيء
كالجذبية مع قطع النظر عن كل مانع يساهمها في فعلها ، وعليه فإن هذه الأشياء لا
تقع عنها الصدفة .. أنظر إن للصدفة أن تجعل الكلب حمارا والحمار كلبا ..
.. ونحن نشهد أن الحركات والأفعال إنما تلي تمايز الأشياء ولا تسبقها .. أو لا
تري أن السقطة لا تتحرك ولا تجري قبل أن يعمل كل من آلتها في موضعه على هيئة
من التمايز لا ينبغي أن يشوبه أدنى خلل ،

• • •

وبغضى هذا حوار إلى عجز « الإنسان القردى » عن الجواب فيسعه صاحب
الكتاب بمناقشة مقولة المذاهب المدين يستنتجها إلى حجاج الفلسفة اللاهوتية .
ويقرر به أن المزم الطيعية وحدها لا تكفى لتحقيق النظر في أصل الوجود من
حيث هو موجود . وهذا معنى البحث عن أصل الوجود بما بعد الطبيعة لأنه « ينبغي
أن يقرأ هذا العلم عند الوثوق على علم الطيعيات ، ولمراد به علم يبحث عن الوجود
من حيث هو موجود ، أى عن ذات الأشياء بقطع النظر عن معانيها وأحوالها
الخاصة التي يمتاز بها الشيء عما سواه ، أو علم يبحث به عن الأسباب الأخيرة
للوجود والعرفة . فإن كمالها لا يتفصلان ، لأن مبادئ المعرفة والعلم العالية المطلقة
إنما هي التي تمكننا من الوقوف على أسباب الوجود .. ولذلك فإنه يكون علم العلوه

• • •

ولا نعلم أن كتابا في هذا الموضوع بقلم باحث مسيحي من كتاب اللغة العربية
ظهر قبل كتاب « مرقمة عم البقن في حقيقة مذهب داروين » مؤلفه الأسقف حبر
له اسطفان مصر مندوبه عين ورقة الذى أغه بعد الكتاب السابق بأكثر من ثلاثين
سنة (١٩٢٩) أعيد في حلاها طبع مؤلفات الدكتور شبل شمبل في هذا المذهب .

ونشط البحث بين الأوروبيين في نظريات التشويه عامة على أثر الحوث التصارية
في نظريات تنازع البقاء وزيادة القوة وما إليها من « الفلسفات » التي أثارته الحرب
لعانية الأولى ومشاكل العلم والاجتماع فيما بين الحربين العالميتين . وقد أشار الأسقف
إلى الأملار التي مرت بمذهب داروين منذ إعلانه إلى تلك السنة ، فقال كلاما عن
العام الألمان إدولف دفرن هارنن قل فيه إنه « في سنة ١٨٦٠ كانت مقومة الألفاظ
من علماء الشيوخ لنظرية داروين شديدة ، وفي سنة السبعين أخذت هذه النظرية
تنتشر في كل صقع تقريبا . وفي سنة الثمانين كان نفوذ المذهب الدارويني عاما
ومعتا حتى كاد يلع سمه تحت الرأس ، وفي سنة التسعين بدأت بعض الشكوك
تعمل وبعض المقومات تظهر ، وعلامة التصعق والانهدام تستت واضحت ، وفي
العقد الأول من الجيل العشرين بدأت أيام تنهب أن تكون معدودة ، وكان بين
مفسديه ودخلى حجبهم من أعلام العلماء يمر ، وغوستاف وونف ، ردى فوير
Virey وفون والشين Wallstein وفليشمان Fischmann وربك Rienx وغيرهم
كثيرون » .

وبعد هذا التمهيد عرض الأسقف للبحث من الناحية اللاهوتية فقال : « إن
البحث العلمي عندما يلقى بنتائج واقعية أكيدة تجمع ساعتها كلمة العام المسيحي
وغير المسيحي عليها على غير نفاذ ولا تناقض . وهذا هو عين الصواب والرشد لأن
الحق لا يغير الحق . ولا يتسهل لاهوتيو الكنيسة الكاثوليكية كما أنهم لا
يسمون لأخصائهم المقاتلين بمذهب الدارويني الخوض . وهذا بعض التوجب
عليه بالنظر إلى ما يناقض حقائق الوحي المقدس . غير أنهم حتى رأوا من بعض
الوجودات انفة بين اللاهوت ونظرية الشوء كذا من هذا القليل لبني الجنب لطفاء
هينين .. فن هؤلاء العلماء الامونا المتدين لأب واسان احرينى الشهير يعلم ضائع
الخطرات التي إلى الاعتقاد بنظرية نشوء الأنواع المتعددة . المتبادل بأن أنواعا كثيرة
من نبات والحيوان نشأت من أنواع طيعية أصيلة أبدعها رب الطبيعة الخلاق ،
كذلك أنب « ألبنة والرية والحمار والفرس والكتب والتعلب الخ .. فإنت بهذا ترى أن
مبدأ الخلق والإبداع لبث غير ممسوس البتة . فإذا حل تصور اشقاق الأنواع الجديد
بتحدر وتسلل على الصور القديم لبثت الأنواع على عدم التغير كانت حكمة

البارى في الجديد أجد ما بالتقديم ، من وجه أنه عز نواله وجل جلاله وضع في
 طبيعة الآلة قوى تؤهلها لتحذر ونشر صور جديدة لوجودات حية بدون انفجار إلى
 توسط أو تدخل قدرة الله السددة لتكون ونواحيه والمعنية بحفظها وإدارتها . وحسبما
 تصدم نظرية ما مع لتعلم المسيحي تصادما وضح غير قابل للشك .. يجب وقتئذ
 رفض هاتيك النظرية وطرحها مطلقا ، وبناء على هذا . كل من قال بمبدأ نشوء
 بنى به الحلقة قطعاً بمون رجعة يجب أن يصرب بقوة ومبدنه عرض الحائط : وكل
 نظرية تنكر خلقه عدم سنة أيام يراد به سنة دور : وسب مدد يجب أن يطرح ،
 وكل قول بأنوار طويلة مرت وانقضت بين تكوين الأرض وخلق الإنسان هو قول
 مغفول لهذا هو مغفول .. لأنه ليس في الكتب تكريم ما بنافيه أو يقضه . أما
 - طر إلى أصل الإنسان . فالكاثوليك مقيدون بنص سفر التكوين . ويمكنهم
 التوسع بتفسير كلمة الكتاب من جهة جسد . فقد رأى بعضهم أن المقصود
 بنويه جسد من ترب الأرض أنه نصي ورسم بصورة وهما أهله وليس كما يجبل
 - حوزي اجرة وذريق . ولم من جهة جس وسليم كاثوليكى ، فلسفة
 - صدقة الرصينة يرسنا أن نص عند الاعتدال من شت بأن نفسا روحية بحة
 و تتفرق وتنتشر حوزي من جس حيون

وتلى هذه المقدمة براهن الأسقف التي بنى عيب رفض تحول الإنسان عن غيره
 من حيوان ، وهي تلخص في المطالبة بالحافة المفقودة . وهي « لا ير لها أثر أو عين
 بين لأحياء ولا بين الأموات ، لا في الأحاديث ولا في التهجرات .. »

ثم سأل الأسقف : « إذا ثبت مذهب نشي هل يناقض الدين ؟ » فكان
 حربه : « أنا مجيب مع العلة التي بين الجرد من لأغراض والأهواء باننى ، وإنه
 لا يصاد مقاصد الحق وعيانه » واستشهد بيحت الدكتور مكرشى بقوله فيه :
 « إن الشوء بجميع مذاحه لا يبقى مقاصد وغايات البارى عز وجل ، فالاستاذ
 مكمل النشوى الكبير وامادى العروف بين الناس نشاء سلم يكون النشوء لا يلزم
 منه تن مقاصد الله ، وإن ترتب أو توقف غنوق على آخر أو عملها معاً لا تمام
 مقصد جيد أو اكمل غاية حسنة كالخياة نبات وجب العيش للإنسان والحيوان هو

دليل وضع عند كبار العلماء على مقاصد الله .. فالذى يصنع آلة تعمل هي آلة
 مثلها : هو أحق وأقدر وأحكم من الذى يصنع آلة تقتصر على لعمل المقصود منها
 ولا تعداه ..

...

وفي سنة (١٩٣٧) ألف الدكتور حليم عصية سوربال الطبيب الأول نسجن
 أسيوط كتاب « صدع مذهب دارون والإلانات اهلنى لعقيدته الخلق » فيه إلى
 خطأ يسبى إلى بعض الأذهان ، وهو اعتقدتهم أن انكار مذهب الشوء مقصور
 على رجال الدين ، فمن من كبار العلماء الطبيعيين من يرفضه كالأستاذ فيالتون
 Valleton عميد كلية الطب بجامعة مونبليه وأستاذ علم الأجنة فيها ، والأستاذ
 كاترواج مدير متحف التاريخ الطبيعى بباريس وهو القائل « إننا لا نعلم كيف تكونت
 الأنواع الحية .. إننا نعلم فقط أنها غير قابلة لتحول وإننا على يقين بأن دارون
 ولا مارك لم يكتشفا النشوى الحقيق لطريقة تكوينها » .

ثم سرد الدكتور سوربال أسماء بعض الأساطين من مسماء الطبيعة المعروضين
 للذهب التحول . وخلاصة رأيهم في الاختلاف بين الأنواع « أن جميع تلك
 العوامل لا يمكن أن تغير نوعاً من الأنواع الحية إلى نوع آخر وكل التغيرات التي يمكنها
 أن تحدثها سطحة لا تمس التركيب الجوهرى للحيوان أو النبات وبعضها بالولوجية
 - مرضية - تنفرد إلى لقراض ليع ، ولقد قل لعاء الاتصال روزا أن
 الاحتيال الاصطناعى الذى جربه بنر الإنسان في خلال الستين سنة الماضية دليل
 عظيم ضد نظرية دارون .. »

ويقول الدكتور أن الحلقة المفقودة ناقصة بين طقات الأحياء . وليست بالناصة
 بين الإنسان وما دونه نسب . فلا توجد حقات بين الحيوانات الأولية ذات الخلقة
 الوحيدة والمخبرات مروت الخلاء لصددة . ولا بين الحيوانات الرسة ولا بين
 المفصلة ، ولا بين الحيوانات اللاقارية والفقرية ، ولا بين الأمهك والحيوانات
 لرمائية ، ولا بين الأحيوة والزحافات والطيور : ولا بين الزحافات والحيوانات
 لندنية . وقد ذكرتها على ترتيب ظهورها في العصور الجيولوجية . . .

ثم قال بعد الاستشهاد بكثير من أدلة هذه الملاحظات العلمية : « إن هناك مسألة منطقية بسيطة .. وهي معرفة كيف استطاع المخلوق الذي يعتبره التحوليون الحلقة المفقودة بين القرود والإنسان أن يعيش بين الحيوانات الفسارية التي تحيط به .. من أصحاب نظرية التشبيه يقولون إن هذا المخلوق كان أضعف عقلا من الإنسان الحالي .. فكيف يمكن لمخلوق ضعيف الجسم وضعيف العقل أن يعيش وحوله الأسد والثعلب والدب والثور وغيرها من الحيوانات المفترسة ؟ .. »

ويحتج نقاد مذهب دارون أن مشكلة الحلقة المفقودة بين الأنواع - كما شرحها الدكتور موريل - هي مشكلة شاسكة لا تمحى هذا المذهب إلى اليوم ، وأنها لا تزل عن قوتها وإلحاحها بعد انقضاء مئة سنة على ظهور كتاب أصل الأنواع واستداف التعليق عليه بين خصوم المذهب والمصاره الذين استجمعوا غاية ما استطاعوا لحل هذه المشكلة منذ الاحتداد المذكور مرور القرن على ظهور ذلك الكتاب

ومن نكتفي بإزده المنة لأنها تنع محى التكبر عند رجال الدين في مناقشة مذهب الشبه ، ومى :

١ - منى الحزم بالرفض بطلان المذهب في جسسه وتقصيله لأنه مناقض لدين غير مستند إلى أدلة قسمة .

٢ - منى الرفض لنفس الأدلة مع تعمق النجحة بالنظر الأدلة القسمة والإيمان بأنه - إذا ثبت - لا يقضى تكذيب العقيدة الدينية ، ولعقلية ، في الخلق .

٣ - منى القول بأن لأدلة القسمة التي يوردها المصاه لثبه والتشكيك فيه أرجح من الأدلة العنيفة التي يوردونها عن تأيده .

...

أما نصار مذهب الشبه في الشرق نرى منذ كان أشهرهم وأفصحهم بيان الدكتور شلي شبل . وقد كاد أن يسـ دارون وأصحه في الأحذ بالظريات

النشوية على علاها ، وقد سبق للماديين الغربيين إلى نقي كل صفة روحية ، أو غيبية في الإنسان ، إذ قال في مقامة ترجمته لشرح بمنع على مذهب دارون : إن الإنسان على رأى هذا الملعب طبعى هو وكل ما فيه مكتسب من الطبيعة . وهذه الحقيقة لم يبق سبيل لتريب فيها اليوم ، ولو أصر على انكارها من لا يزال مفعول التعاليم القديمة راسخا في ذهنه رموخ النقش في الحجر .. فلإنسان يتصل اتصالا شديدا بعالم الحس والشهادة ، وليس في تركيبه شيء من المواد والنوى بدل على اتصاله بعالم الروح والغيب ، لأن جميع العناصر المؤلف منها موجودة في الطبيعة وجميع تقوى التي فيه تعمل على حكم قوى الطبيعة .. فهو كحيوان فزيولوجيا ، وكالإنسان كياويا ، والفرق بينه وبينها فقط بالكيفية لا الكمية والصورة لا الماهية وأعرض لا الجوهر . فالإنسان يحس ، والحيوان يحس ، والإنسان يدرك ، والحيوان يدرك ، ونواميس التنفذية واحدة فيهما .. غير أن الإنسان يدرك أكثر من الحيوان لأنه أكمل تركيبا من الحيوان .

وكانت ردود الدكتور شلي شبل على مناقشة تكرارا لردود دارون وغيره وغيرها من القائلين بنحول لأنواع ، وفحواها :

١ - إن التباينات بين الأنواع لا تريد على التباينات بين أفراد النوع الواحد إلا بالوراثة ، وهذه التباينات لا يحكم عليه بالفترة المعلومة من تاريخ الإنسان لأنها ثبتت بعد انقضاء مئات الملايين من السنين ..

٢ - وإن أنصاف الأنواع من شأنها أن تعيش وتنتل موتها إلى زمن طويل ، لأن اموريت مرتبط بنام اجهاز المنير للنوع وهو لا يتم في أنصاف الأنواع ، ولكن قد يدل عليه التماثل بين بعض الحيوانات كالحليل والحميز أو الكلاب والذئاب ، وقد يدل عليه اكتشاف العنبر العجيب - الأوكريتكوس - الذي وصل بين طائفتين من الحيران متفصل بينهما عن بعض انفصلا تاما وهو الطيور والحشرات .

٣ - إن المصاه يخطئون في وضع حدود الأنواع ، وقد ذكر دارون : أن التباين الإنجليزي وسنن يذكر ١٨٢ نباتا إنجليزية عدها غيره أنواعا مع أنها تباينات ، ولد

قال هوكر في هذا المعنى ما نصه : إن الناقين يعدون الآن من ٨٠٠٠ إلى ١٥٠٠٠ نوع من النبات ، فليوح هذا غير محدود ..

٤ - إن التحولات لا يبنى أن يبحث عنها في الأنواع الحاضرة ، لأن كلا منها تطور عن أنواع سابقة له في سلسلة هي التي كان يمكن أن يمرى بينها التحول في أوانه ، ولكن الأنواع الحاضرة تاعدت من أصولها فاعدت الأشباه المتحولة فيما بينها ..

ولا ننسى - عند تقديم مواصل العناد بين الطرفين - أن الدكتور شل شير إنما يواجه بهذه الخصومة المذمومة سلطان رجس الدين ، فتساق من هذه الخصومة إلى خصومة الأديان ، ورأى كما قل في مقدمة الترجمة أن الملل والديانات أصب راسد ، وقيامها في الدنيا إنما مو لعاملين : حب الرئاسة في الرؤساء ، وإنتاج المراءوس إلى حب الفناء ، وكلاهما لما في لآسن من عمة الدات .. فسطا دعة النفس على سدجى العقول مدم ، فساد بعض وسيد على البفس الآخر ، ووه بذلك غرض الفريقين .

وخضب رؤساء الدين في حتام المقدمة فتلا : سوف يتون ما بق ، ولزن كان حظكم من ذلك في الشرق أطول حدا نولا أن اعرب باسط بوله يديه .. ولا تعلموا النفس بما في التاريخ من سقوط بعض الأمم .. التفت إليكم مقاليد أحكامكم وسلمتكم زمام أمورهم ، فته - وإن حصل ذلك - إلا أنك لن تبخر أمانيكه لتوفر معدات التقدم في العلوم والصنع وانتشار ذلك بواسطة الطباعة .

وبعد ، لهذه شلوات من التعليقات تحببة والفضية التي قول بها مذهب التطور في الغرب وفي بلاد الشرق العربي - تحسب أننا أثبتنا فيها على كل رأى من آراء فلاحيين الدينين والطين في هذا المذهب ، وأن الكك التي اخترعها لاتنباس منها تمثل جوانب التكبير جيمد في هذا الموضوع ..

وقد مضى أكثر من سبع سنه على ظهور أقدم الكك التي ذكرناها في هذه المجلة ، ومضى نحو ثلاثين سنه على أسسها .. فإذا أردنا أن نعود إليها لتحكم

عليها حكم الرمس المخصص للآراء ، فالملى نراه اليوم أن الدينين قد وقفوا الموقف النظر منهم في معارضة التشريع الماديين - وليس من المعتل أن يشال انكار الدين بغير الانكار من أهل الدين ، وقد أصاب العلامة الشيخ محمد رضا حين قال انه يدع الشبهات عن العقيدة الإلغية في كل مة ، ولا يقصر دفاعه على عقيدة الإسلام

ولكن الكتب الذين تناولوا هذا الموضوع من الوجهة الدينية قد أخطأوا - دينيا وعمليا - في انكارهم باسم الدين أمور لا تزال قيد البحث في الإثبات والنفي ، وخير أن تسفر بحوث العدد عن إثباتها بقطع الشك فيها .. كما يجوز أن ينفها مما يرب موضوع الخلاف فيها بين عقائد الدين وحقائق العلوم ، وقد كان لبعضهم عذره لفلة المعلومات الصحيحة التي وصلت إليهم عن مذهب دارون ومذهب تيجر على العمدة ، وكان لبعضهم عذر مثل هذا العذر قد يسوغ اندماجهم إذ نراه أحضر من عقائد الإلهية يوم تعجل لثائرة لتقليد ، فهاجموا على المذهب عن غير علم به كدنه في المحرم على كل جديد مستغرب ، وانتحلوه مثررة بأحدث لاخذ ونزوى .. فكان نعتهم هذا داعيا إلى مقاسمهم بتعجل منه من الحيين .

بدأه - ولا ريب - تعجل وخيم العاقبة ، قد ظهرت حوافر الرخيمة مرة بعد مرة منذ ابتداء العصر الحديث في نشر كشوفه التوالية ، ووجب الانتعاض بعراقب التعدي للمباحث العلمية وهي في معرض التحقيق بين الآثات والنفي أو التغلب والاستصعاف ، ولله علم وحال الدين في الغرب ماذا كان من أثر تحريمهم بقول بدور - الأرض حوت الشمس ، ولعاجهم تعلم الش أن الشمس تدور حول لأرض .. كان وجود المختل جل وعلا مرتبط بدوران هذه أو تلك ، وكل في قلت يسبحون

لقد ك - في ذلك التعجل من رجال الدين عظة لهم تهاهم أن يعبدوا مثل هذه الخطة في تصدى لمذاهب العلمية التي لم يقطع الشك في ثوبها أو بطلانها ، وقد يقطع شك عدا يمت على منكرها أنهم كانوا عطفين في فهم الدين والعلم

على النساء . فان نزول المادية الذي اضطرب له العرب اضطرابه العنيف ، كان له حجة على العقائد الالهية أقوى من هذه الحجة على الدين . كما تصوره الشعوب من المؤمنين على غير يقين ..

.. .

وبشبه هذا الخطأ المنكر خطأ آخر لم يتفرد به السيونيون . بل شاركهم فيه رمية من الصمد لم يحسنوا التمييز في تضاد العلم وقضايا الحقوق المدنية أو الجنائية في احكامهم ونوازل الشريعة .. فصاحب الدعوى في المحكمة أو الدون مطلب . نسب دعواه لأنها مصلحة الخاصة ، وفيها - لم تثبت - اضرار بمصالح الآخرين . ولكن الدعوى السببية ليست كذلك ، ولا يصحح أن ينطأ أمر ثباتها بمن يدعيها وحده ، وهي مصلحة اناس آخرين . ومن ينكره فغير حق يضر بالاناس أجمعين ..

وقد أقرنا لقاء جدي في ثلثت بمسألة أنواع الوسطى . ولم يصطنعوا لأننا لندرك في هذه الحجة من النصف والعنت . يعلمون أن التثبيت بها إلى حد اضرار شخصه من قبيل اضرار الخصوم المتنازعين على دعوى احكامهم والدواوين .

فكيف خطر على بال لذلك تخلص أن الأنواع الوسطى تنق ما ذرية ، مع العلم بأن الورثة لا تتم قبل استكمال خصائص النوع ؟ وكيف يفوتهم أن ينمحو هذه الحقيقة ويرثوها عليها ما ينبغي أن يترتب عليه من التثريب والانتظار ، وهم يرون اليوم أمثلة بارزة من توقف النسل بين الجيل وحيد أو بين الذئاب والكلاب ؟ .. وإذا كان القائل بالشبه يعجز عن إقامة الدليل على تناسل النوع بوسط . فكيف يحال هذا تعجز إليه ولا يحال إلى الواقع الذي لا حيلة له به ؟ .. إن كثيرا من الأحياء النافذة في اليوم لم يتق منها أن يبدل على وجهها في خصوم أختار المظموه بين طبقات الأرض ، فإذا جاز مذاق أمر الأنواع التي بقيت ولا شك في بقائها إلى اليوم فكيف تستكره على انعدام الأنواع التي لا تستكمل خصائص النسل والتوريث ؟

فيس من الرأي اسلم - دينا ولا علما - أن يرتبط بقصر الشبه معجز الشونين عن ابقاء أنواع وسطى من لحيوان غير قابلة بطبيعتها لبقاء والتوريث

وقد يحدث غدا أن يوجد الدليل الممكن على النوع المتوسط أو توجد الوسيلة الممكنة لمتلقيح بين الأنواع المقاربة ، تعود إلينا قصة دوران الأرض ، ودوران الشمس يخطر على الدين ولعلم لا داعية له غير التعجل والعنت في المحسومة الفكرية ، وإنه لعنت معيب يحز في خصوصيات المال ولكنه يحرم أشد الحرمان في خصوصيات الأفكار والآراء .

.. .

وفي كتاب تدور موضوعاته من حكم تفرق الكرم في شأن الإنسان بعيب هذا أن نسأل : هل يصيب الذين يحرمون باسم الإسلام مذهب النشونيين المؤمنين بأخلاق ؟ ..

وليس يحتاج كثير من الشك ولا قليل في حلول كتب الإسلام بما يوجب القول بحرم هذا المذهب .. فقد ثبت غدا أن المذهب صحيح كله أو بطل كله ، أو ثبت أن بعضه صحيح وبعضه باطل ، ولكن كتاب الإسلام لا يصد عن سبيل العلم في أية وجهة من هذه الوجهات . كما يستنبه في موضعه من الفصل الأخير

الدين ومذهب دارون

نعود فنقرر في هذا الفصل ما ختمنا به فصل السابق . نقول ان مذهب التطور ايا كان تفسير القائلين به لنشأة الأوع . ليس فيه ما يصح أن يسند إليه المنحدرون لإبطال الدين أو انكار الخلق أو تحول بخلو الكون من دلائل القصد والتقدير .

وقد نسب الحقول بنشأة الأنواع من أثر الانتخاب الطبيعي والانتخاب الحسني إلى عاين كبيرين من علماء القرن التاسع عشر : هما شارب دارون والهربرت سبنسر . ولما يكن أحدهما مكررا لوجود الله .

فولغا - شارلز دارون - كان يقول : إنه يستريح إلى الإيمان بوجود الإله في هذا الكون الكبير ، ولكنه يرى أن شعوره هذا لا يلزم أحد أن يشعر به ولا ينبع من شأنه أن يكون حجة علمية تقنع بغيره .

كتب في سنة (١٨٩٧) إلى الأستاذ ويدس صاحب كتاب « صور من الشكوك » يقول جوابا عن سؤاله : « انتهى في شد أحوال التردد لم أكن قط ملجدا إذا كان معنى الملحد إنكار وجود الله . وأرى على العموم - وبخاصة مع تقدم السن - أنني أحمى أن أمي (لا أدري) وأن هذا الاسم أثوب إلى الصواب في وصف تفكيرى . »

وقال في خطاب كتبه إلى طالب هولندي (في الثالث من أبريل سنة ١٨٧٣) :
« ... بدو لي أن استعانة القول بأن هذا الكون العجيب العظيم ، وما نظرى عليه من شعورنا الواعي ، إنما كان ولدا الصدفة - هو أكبر مستند للقول بوجود الله ، ولكنه مستند لا أستطيع أن أقر قوة اقناعه كما لا أستطيع أن أغضى عن المشككة التي تتجهم بما يتخلل هذا العالم من الآلام . »

كتب إليه طالب ألمانى في سنة ١٨٧٩ يسأله عن عقيدته الدينية : وعن تعبدية

التي يدعو إليها الأحذ بمذهب التطور ، مكلف أحد ذوي أن يحبه ويجيب غيره من يوجهون إليه هذه الأسئلة قائلا :

« إن مستر دارون يعتبر لكثرة الرسائل التي ترد إليه ولا ييسر له الرد عليها جميعها . ويود أن يقول إن مذهب التطور يوافق كل المرافقة إيمان المؤمن بالله . غير أننا يجب أن نذكر أن الناس يختلفون كثيرا في تعريفهم لما يحونه بالإله . »

ويذهب من خلاصة وأيا في سيرته التي كتبها بقلمه : أنه لا يفرق بين كتب العهد القديم وكتب الديانة الهندية من حيث نسبتها إلى الوحي الإلهي ، وأنه لم يبق لديه السبل على حدوث هذا الوحي في التاريخ ، ولكنه إذا أراد أن ينظر إلى المسألة الإلهية من جانب الانتخاب الطبيعي فإن أنواع الأحياء كانت خليفة أن تضرب من تعبد وجديهما واستمرار سبلها لو كانت ضرور الحياة أكبر من حسانتها ، وهي الحاجة التي يستند إليها المحدثون في انكارهم للمقاصد الإلهية

وكن دارون على تروده في مسائل الغيب . بشعر بقداسة الدين وحرصه على رعية شعور المتدينين ولا يرفض من العلماء أن يشحموا مذاهبهم على غمائم الناس فيما صانوا إليه من عقائدهم الروحية ، فلما أراد كارل ماركس أن يهذى إليه كتابه عن رأس المال كتب إليه متعلما ، وقال من رسالة محظوظة الآن لعهد ماركس والتجمل في موسكو : « انتهى أشكر لك رسالتك لودبة ... وأفضل أن يكون هذا الخزع من كتاب غير مهذى إلى مع شكركى لهذه النجبة ، إذ كان هذاؤه إلى يتفلسف على وجه من الوجه القرارى ما في سائر الكتاب الذى لا علم لي به . وانتهى - مع غيرة على الدعوة إلى حرية الفكر في جميع المسائل - أرى . صوابا أو خطأ ، أن نقشات البشارة التي تناقض لتسيحية والإيمان بوجود الله قلا يكون لها أثر على جمهرة الناس ، وإن خبروسينة لتحقيق الحرية الفكرية أن تنظم العقول تبعاً لتقدم العلوم . ولهذا أرائى أتجنب الكتابة في أمور الدين وأقصر كتابتى على المباحث العلمية . »

وعاش دارون بقية حياته على هذا الرأى ، مؤمنا بأن مذهبه لا ينقض من العقل أن يبق وجود الله . ولا أن ينس عقائد المؤمنين بوجوده . وأن الإيمان بأية ديانة

من لذيذات لا يتوقف عن الفصل في قضية التطور إلى الرض أو إلى القبول .
 أما « فريد رسل ولاس » ، شريك دارون في القول بعدد الأنواع من أثر
 الانتخاب الطبيعي وعواس البنية الطبيعية . فقد كان مؤمنا قوى الإيمان بوجود الإله
 .. وكانت مربية لعواس الطبيعة سببا لتصديقه بالمعجزات وخوارق العادات .
 لأنه كان يستخلص من فعل هذه العوامل في الطبيعة أنها لا تجري على هذا الجرى
 وإنما يحكم العقل أو يحكم التفكير المنطقي ، ولأنها كان يحوز أن تجري على مجراها هذا
 أو على جرى آخر يساويه وبماثلة في حكم العقل والأقضية المنطقية . وإنما هي
 الإرادة لامية التي أوجبت هذا النظام نتيجة لتلك العواس . فليست المعجزة التي
 يريدونها . أغرب من نظام العوامل المطردة في ظواهر الكون ، ومرجعها جميعا إلى
 الإرادة لألهة على المراد أو على اشتاء .

• • •

ومن عقيدة مسيحي المذهب في مسائل النيب ، نفهم أن العلماء والمفكرين في
 الغرب يقسمون هذا الانقسام وأن القول بأن عالم من العلماء أو فيلسوفا من
 الفلاسفة يغلب مذهب انتطور على تعدد معانيه لا يدلنا على رأى محدود يراه في الدين
 المسيحي أو في الدين عامة ، لأنه يجوز أن يكون من المؤمنين كما يجوز أن يكون من
 المنكرين أو المتبردين ، حسب المنهج الذي يبنه في تفكيره وأساليب استدلاله .

ومن مفكرين والعلماء من كان يعمل التطور أساسا لعقيدته الروحية أو لفكرته .
 وأشهر هؤلاء بين فلاسفة القرن العشرين « برجسون » الفرنسي و « هوبنيد »
 الإنجليزي . وهو عدد اشتغلوا العميق بالبحوث الرياضية والفلسفية وحل من رجال
 الدين وخذ من علماء اللاهوت ..

ويكثر بين العلماء الطبيعيين من يعتبرون التطور دليلا على النظام ، ويعتبرون
 النظام دليلا على وجود الخالق . ومنهم أعضاء في جميع العلوم السكى كالاستاذ
 « جلادستون » الذي يقول : « كثير منا نحن المسيحيين من رجال العلم من يدركون
 أن هناك وحدة في النظام ووحدة في الغاية . يدرون من خلال النظر في حقائق الله
 .. ونحن ندين بأن مذهب دارون عن بقاء الأنسب لا يبطل فكرة تدبير الإله أو

فكرة النظام المقصود .. بل يؤكد هذه لفكرة ويمهد لنا سبيل النظر إلى الواسع التي
 اختارتها العناية الإلهية لتدبيرها مقاصدها منذ القدم ، فرى أنها نتيجة قانون منظم
 ونبت مجرد سلسلة من المفاجآت المنفرقة .

• • •

أما المنكرون من علماء الطبيعة . فحجتهم في الإنكار أن العقيدة الدينية تقوم
 من الخوارق والمعجزات . وأنه لا سبيل إلى التوفيق بين عقيدة تقود على خرق
 قوانين الطبيعة ومن علم يقوم على فهم الكائنات لا يقتضيه هذه القوانين .
 وأشهر من ينه عن رأى بين علماء الطبيعة « ارنست هيكل » الألماني
 و « نومس هكس » الإنجليزي . وهما قريب إلى الاعتدال في الإنكار من زميله ..

هيكل ينوب : « إن العقيدة الدينية تعني دائما تصديق معجزة خارقة ، وهي
 - المثابة قائمة على منقضة بقطع الرجاء في التوفيق بين وبين عقيدة العقل الطبيعية .
 وهي - عن خلاف سنن النسل - تذهب إلى فرض عوامل فوق الطبيعة ،
 ونحن من نحن ذلك ، بأن - فيها حكمة - أو غير مادية - وبذلك
 حرجي المدعى الذي تأسست عليه عقائد المسيحية ليس مما يتفق مع أثبت الشائع
 حتى وصل إليها العلم الحديث ..

وهكس يقول : « إنما - أمام الأمور التي لا شك في بطلانها عن الاحتمال - لا
 نقول إننا محقرون في طلب البرهان المنقطع لتصديق وقوع المعجزة خارقة من فوق إن
 واجب لأدنى يقاضا أن نجد هذا البرهان قبل أن نأخذ تلك المعجزة خارقة مأخذ
 حذر والاعتبار . ولكننا إذا كنا - بدلا من الوصول إلى ذلك البرهان المنقطع -
 لا نرى أدما إلا حكايات تجهل كيف نشأت ومتى نشأت في نفس يستطيعون أن
 يصدقوا على التصديق أن الشيطان يتلبس بأجسام اختاير . فترقى أصرح بأن
 شعوري ثم هو شعور الدهشة من أن أرى الإنسان لعقل ينظر إلى شهادة هؤلاء
 نقرة جدية »

• • •

وعلى مثل هذا المذهب يدور الخلاف بين الفريقين الذين يتفقان في قبول مذهب التصور ، ولكنها لا يتفقان في الحكم على دلالته من الوجهة الدينية ، ولكن هذا الاختلاف لا يرجع إلى المذهب في ذاته . . وإنما يرجع إلى طريقة النظر إليه وطريقة التفكير التي تعودها ذهن العالم أو الفيلسوف . فربما خرج المذهب بتبعين مناقضتين من فكرة واحدة يراها أحدهما يراها على وجود الله ويراها الآخر مغتربة عن البحث في ثبات وجوده ، وقد صال نابليون بونابرت أكثر علماء الفلك في زمانه - لالاس - عن مكان النهاية الإيجابية في حركات الأوتار . فكان جوابه أنه لا يرى لها مكانا فيها ينضم من تلك الحركات . كأنه يقول إن قوانين الحركة وحدها تفسر دورة الفلك تمسيرا يفتي عن الضرورة أية أخرى وراهم . وهو أسلوب من التفكير يناقض أسلوب المذهب الذي يرف دوره الفلك ويعلم أن الفلك لا يستلزم حقيقا على هذا الوجه دون غيره . وأنه لا بد - إذن - من البحث عن زيادة التي احتازت لها هذا الوجه من حركة متضمنة فيه .

ولعل المارق بين هذين المذهبين من التفكير يعلق بالنظرة إلى نظام والمعرفة . فمن كان من القائلين بالتطور مؤمدا بالحدية الإيجابية في تفكيره أن يستدل بنظام الخلق على وجود الخالق . وأن يرى بعد ذلك أن المعرفة لا تستغني مع الاثنين بالقدرة الإيجابية والحكمة التي تستدعيها ، إذا كان هناك ما يستدعي مع المنجزات في رأيه .

ومن كان من القائلين بالتطور معطلا لعنده الدينية . فطريقه في التفكير أن التيق متعذر بين تفسير الكائنات بالقوانين الطبيعية وبين خرق هذه القوانين لإثبات عقيدة الدين .

تكن الرأي الأخير الغالب على علماء اللاهوت المسيحيين أن معارضة الرؤساء من رجال الدين لمذهب التطور عند إعلانه قبل مدة ستة لم يكن من صدأ الرأي في نيره ، وأن هذه المعارضة ينبغي أن تحسب على أصحابها ولا تحسب على الديانة المسيحية التي لا تأخذ التفسير على وجه مذهب التطور على أقواله متعددة .

ويجوز عن هذا الرأي في كتاب مؤلف لهذا الغرض عالم من أكبر علماء الرياضة وعلماء اللاهوت المعاصرين وهو الأستاذ كولسون عضو مجمع العلوم الملكي وصاحب كتاب « العلم والعقيدة المسيحية » ومدار الرأي فيه كله على هذه المكرة سواء فيما يرجع إلى مذهب التطور أو إلى غيره من مذاهب العلم الحديث .

سلسلة الخلق العظمى

سلسلة الخلق العظمى مذهب يوازي مذهب لنتور . ويبحثى معه فى معظم الطرق .. ولكنه لا يتدنى معه من البداية ولا ينهى إلى الغاية ..

وصفوة القول سلسلة خلق العظمى ، أن توجد درجات متفاوتة فى ترتيب الصفة والشرف ، تبدئ من المادة الأولى التى لا صورة لها وترتفع إلى مرتبة الوجود الإلهى لذى تحض له تعلم والخبر . فهو علم لا يعرض له الجهن ولا يحتاج عنه سر . وغير لا يشوبه الشر ولا يقع له فى إرادة

وهذه السلسلة اعظم كرامة فى نظامها كى حكمة من خلقت الوجود . وكل قبيحة من قابليات السمات ولا عرض . فلا تخرج السلسلة العظمى من حيزها الحقيقى . ولا يفتقر إلى وجودى الامكان قبيحة حتى قد ولا توجد من فوق مع حكمة من خلقت وجود مثل . معنى

...

والرائد الأكبر لهذا المذهب من الأقدمين أفلاطون الملقب بالحكيم الإلهى ، فهو الذى وضع هذا المذهب ترضيها فلسفيا وبناء على حجة عقلية ، وهى أن الله وهو خير محض - أى له كرمه أن يضر على شئ . كائنا ما كان ، بنعمة الوجود .. فهذا يبلغ من حنانه شأنه فهو مستحق لخصته من الوجود فى مرتبة من خلق . ومستحق لأن يصعد من هذه المرتبة إلى ما فوقه بصفة من الله وما ركب فى طبائع الأشياء من شوق إلى الكمال .

وراجع أن هذا مذهب وصل من اعتد إلى حكماء اليونان من طريق العبادات لشرية لى عرفت باسم لخلق الألفية . وأسمى بآدم من كتاب الفلاسفة من ممر . فبناغوراس ومندوقليس . وكلاهما يتولى بتناسخ الأرواح . ويتطلس فى معيشته على نظام الترويض لصفوية ودرجة لدية . ومن أسمى من كان يجمع بين شام ومراسم لدية ويعزز فى مدارج لدية

وقد كان فيثاغوراس يحتب أكل اللحم ، ويقسم الأغذية إلى صالحة للروح وغير صالحة فأنها بهيمة ، وكأنه كان يحرم أكل اللحم لأنها مأكلى السباع ويحرم أكل النول وما إليه لأنه مأكلى البهائم ، وعصب أن الأرواح تنتقل بين الأجساد ترتفع أو تنبط فى درجات الخلق ومراتب البهيمية والروحانية ، وله من الأقوال المتفنية ما يشبه مذهب الهند فى الدورات الأبدية التى يحسبونها بعدد مقدور من الوف السنين ، مع قسمة السنين إلى شمسية وكونية

...

وجاء بعده اميدوقليس . فقسم درجات المادة واعتبر لعناصر الأربعة أشرفها وأعلاها ، وسماها بالجذور قل أن تعرف باسم العناصر وتسمى بعنصر النار وعنصر الهواء وعنصر الماء وعنصر التراب .

والعالم عند أصحاب القول بالسلسلة العظمى ، عاظم : كبير وصغير . فالعلم الكبير Macrocosm هو الكون كله بما شمس عليه من كائنات علوية وسفلية ومن مرتبة روحية وبهيمية ومادية ، والعالم الصغير Microcosm هو الإنسان ، لأنه يحتوى فى تكوينه كل عنصر وكل مادة وكل درجة . ويتقبل الارنفع إلى صفات العلم والخبر . أو صفات العقل والتدبير التى تمت لئلا على أكملها وأرفعها . كى يتقبل اشريط إلى مرتبة البهيمية وما دونها . وفى الإنسان شئ من خصائص الأجسام المادية ، وشئ من خصائص الأجسام لثابتة ، وشئ من خصائص الأجسام الحيوانية ، وشئ من خصائص الروح الذى يكون للسلائكة بغير جسد ، وشئ من المعرفة التى ينتب بها من الصفات الإلهية .

وقد انتقل مذهب السلسلة العظمى من الهند واليونان إلى العرب . وانتقل من العرب إلى متصرفة الأوربيين ، وكان من تلاميذ الحكمة العربية رجب تسنم عرش اليابوية فى آخر سنة قبل نهاية القرن العاشر (٩٩٩م) وهو مستشرق لثاني ، وقطهرت آثارها فى أقوال المقديس توما لاكويسى والبوت الكبير . ويرى الأستاذ آسيز ملاسوس الأسباني أن نزعات دلتق الصوفية وأوصافه لعد الغيب مستمدة من بحير الدين بن سري بغير نصرف كثير . ومن المعلوم أن أول الفلاسفة الصوفيين من

الغربيين - جوهان اكهارت الألماني - نشأ في القرن الثاني لعصر ابن عربي ودرس في جامعة باريس ، وهي الجامعة التي كانت تعتمد على الثقافة الأسبسية في الحكمة والعلوم^(١) .

ونقل اكهارت من أسبق المتنبئين من التصوف الغربيين قوله ابن عربي : إن الله هو الوجود الحق وإن كان ما عداه من موجود فوحيته عبثية ، وهو قول في جملة ما بعيد إلى الدهر قول أفلاطون إن الله هو مقياس كل حقيقة . رينا على روتاجوراس Protagoras الذي كان يقول : إن الإنسان هو مقياس الوحيد ، وإن الله أنعم على الإنسان بالحياة ، ازميتة ، لأن الزمن محكاة لوجود الأسى الذي اختص به لاله دون سواه ، وليس بين القرنين تناقض في النهاية ، لأن أفلاطون يحدد العقل - صفة الله العليا - درجة بعدد الإنسان ولا يتركها من دونه من المخلوقات ، ولكنه قد يعلو بالعبارة فوق مرتبة مادة التي تمتزج . عقل في كبريت الإنسان ..

وقد كان لفلسفة أرسطو نصيب غير قليل من الأثر في توحيد عقول الأوروبيين منذ القرون الوسطى إلى مذهبهم أو أفكارهم ، في سلسلة الوجود العظمى . لأنه رتب الموجودات على حسب نصيبها من الحس . وفارب بين النبات والحيوان . فجمعهم مشتركين في « النفس » النامية ، وكاد أن جعلها رتبة من رتب العقل ينسب اليها النبات من الحماة والحيوان ، ولم يكن في نصيبه للكائنات من حاسم بين الحيوان وما دونه لأن « التولد الذكي » كان في تدرجه من السمكيات ، وانتهت به بعد القرون الوسطى وأوائل العصر الحديث قبل . نظير بعدد . ستجده تدرج حيوان من غير الحيوان .

وتقبل اللاهوتيون الأوروبيون فكرة السلسلة العظمى . كما ومنهم من

(١) انظر الغرب في الحضارة الأوربية المرفأ

مفكرى العرب ومتصوفهم ، فلم يحدوا فيها بتدقيق بنكرونه بين القول بخلع الإنسان بالإيمان وقول سقراط وأفلاطون أن العقل هو الصفة الإلهية التي يتحل بها الإنسان ويعطو بها من أفق الخلق الدنيا إلى أفق النعمة الإلهية وإن الإنسان يعرفه للأشياء بحسبها ويملكها ويؤمن على تديدها محاكاة لقدرة الله على تدبير الخير خيولته ، فإن التناقض بين خلاص الإنسان بالإيمان وخلاصه من أوهام المادة بالعقل والمعرفة . يظل ويزول متى اعتقد لفكر أن العقل لرشيد سبيل إلى الإيمان . وانه يزل على الأكمة الإلهية في نطلعه إلى النجاة والخلاص

وله يصطد الرأي من بعض الجوانب إلا بعد ظهور فلسفة ايبلاز (١٠٧٩-١١٤٢) الذي فسر سلسلة العظمى بأنها لازمة ضرورية تستوعب كل السمكيات . فاستحسن أن يوجد شيء ما هو موجود . لأن الخالق في علمه وقدرته يعلم جميع السمكيات ولا يحجز عن تحقيق ممكن منها بتعق بعينه وإرادته . فذكر عليه مدرسه برنارد دي كمبرفو (١٠٩١ - ١١٥٣) داعية الحروب صبية الثانية ذلك تفسير : وقد إنه ينقض ما ينبغي أن يؤمن به من عدم . ثم عن الخصصة والذهنية ومن إنعامه بالخلاص على الخطاة ، وكان اندس توم لأكويشي (١٢٦٦ - ١٣٢٤) يميل إلى تأييد برنارد في اعتراضه على تفسير ايبلاز ، ويؤكد بعيد ردود الغزالي على ابن رشد في مثل هذه المناقشة ، فيقول : إن حق الله هذه المخلوقات بمن سبها التي أودعها فيها لا ينفى قدرته على خلق غيره زائدا عنها ، ولا ينفى قدرته على خلقها مرة أخرى في صورة غير هذه لصورة ، فيفس انتظام سلسلة الخلق مانعا أن تنتظم لها حلقات غير هذه الحلقات . وبسبب غير هذه السلسلة مع استيعاب الله لجميع السمكيات ، لأن التبدل في سمكيات غير مستحيل . وجاء بيكونديلا ميرندولا (١٤٦٣ - ١٤٩٤) Pico della Mirandola فقال بما كان يقوله للتصوف المسلمون من قبول الإنسان لأربع المراتب وأدناها ، وإن كل مخلوق قد يلتزم مكانا من سلسلة الحق لا يعذره . فله لا يتقيد بمكان من السلسلة العظمى غير المكان الذي يرتضيه لنفسه . علوا إلى مرتبة الملائكة المقربين ، أو سفلا إلى مرتبة البهائم

ومشتركة

وعد البحث في مكان الإنسان بعد كشف كيرينكوس للدين الأرض حول الشمس . وتجدد المناقشة عن مركز الحقيقة وعن مكان الإنسان على هذا المركز اعترض .. فقد يجوز أن يكون للعالم الأرضي نظراء له من عوالم السهوية وأن يكون أحد العوالم سكانها من الملائق المقلاء ، ولكن هذه المناقشة لم تزعزع أساس فكرة لقي تسلسل الموجودات من أدناها إلى أعلاها في العالم المعروف . وفي كل عام يمكن أن يعرف ناساً عليه ، وظلت فكرة السلسلة العظمى غنة على الباحثين في مركز الإنسان من الحقيقة ، وقال بها فلاسفة الشعراء كما قال به فلاسفة الحكماء وبين أن زمن قريب . وعلى أساس هذه الفكرة نظم الشاعر الإنجليزي اسكسبروب (١٦٨٨ - ١٧٤٤) قصيدته الكبيرة التي سماها قصة من الإنسان . وقال فيها يتخطب الإنسان :

اعرف إذن نفسك . ولا تدع لإحاطة تعلمك

بـ دراسة الناس على الناس

قل على برح هذا من الخلق الواسع

الخلق عاقلاً في ضمة ، عظيماً في خضمونة

أعلم من أن يكون « شكوكيا » لا يدري

وأضعف من أن يكون « روائيا » يصير

معتقد بين العمل والرحمة

معتقد بين الإهية والجمية

معتقاً يتردد بين رثا عقده أو بدنه

ايولد ولكن يمحى ، ويعلم ولكن يخطئ

يحبط به الجهل نفير علمه أو راد

ويغشى أمره في فوضى من الفكر والشبهة

وهو الذي يسعى إلى نفسه أو يتجنب الإساءة

« مخلوقاً نصفه ليرتفع ونصفه لينحدر

« سيداً لجميع الأشياء ورفيعة لما جميعاً

« وهو الحكم الوحيد لها هو حق و« بطل » ، ولكنه يضطرب في خطأ دائم

« ولا يزال يخر الخلق ، وسخر فيها ، ولنزها لنفسه ، في آن »

وهذا هو مكان الإنسان الأوسط ، بين صفات هذه السلسلة العظمى

« التي إذا تكسرت إحداها وقع الخلق في سائرهما »

وجاء بعده شاعر آخر هو جيمس تومسون صاحب قصيدة الفصول (١٧٠٠ -

١٧٤٨) قدّم اوجود من طرف هذه السلسلة العظمى « بين الكمال الذي لا حد

له . وبين حافة الهاوية السفلى والعدم المروع »

• • •

وتوقف البحث في سلسلة الخلق العظمى بعض توقف بين أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر . ولكنه لم ينقطع .. ولا نعتقد أن الانقطاع عن البحث بعض لسألة الإنسان ومركزه من تكون في زمن من الأزمان ، وإنما انقطع البحث فترة يسيرة ، لينحدد بكل ما يستطاع من قوة مع البحث في مذهب التطور وفي علوم « الأحياء عامة وعلم الإنسان خاصة على هذا لقطع الواسع الذي يشمل البيولوجيا علم الحياة أو « البيولوجيا » وعلم الحيوان « الزولوجيا » وعم الأجناس « الأنثولوجيا » وعلم الإنسان « الأنثروبولوجيا » عدا ما بحث شئ تتصل بمعلومات العامة عن الإنسان ومركزه بين الكائنات في آراء علماء طبيعته وآراء فلاسفة وشعراء

• • •

ويعود إلى المسئلة العظمى عند العرب الذين نقلوا أهم مصادرها إلى الأوروبيين . فتقول أنهم عرفوها - كما تقدم - من مصادر شتى ولم يجعلوها دستوراً لهم . يجب ملاحظة أن « الفكر الإنساني » كان عن مذهب القائلين بخلق المخلوقات . لأن مكان الإنسان كما ورد في آيات القرآن الكريم أعلاه عن القول بمكانه أنه ينسب

إلى سلسة الخلق ، ويلحق بها قرأنا على طريقة الأقدمين في إلحاله بغير الخلق
الآدمية .

وإنما عرفت خكاء العرب أقوال تشير إلى ترتيب السلسلة في مواضع متفرقة من
بحوث العلم أو الدين ..

ومن ترتيب أفاق الموجودات كما تقدم في فصل « التطور قبل مذهب التطور »
من هذا الكتاب .

ومنها الكلام على « لنفس والروح والعقل » والفرقة بين مراتبها ، ابتداء من
النفس التي كان أرسطو يجعلها قوة مشتركة في الخلق الخامية . إلى الروح التي تلو
على نفس في هذا الاعتبار ويمار بها لإنسان عما دونه . إلى العقل وهو الصفة
الالهية التي ينحل بها الإنسان ويغترب بها من آفق الخلق أو غرك الذي تقرب منه
للموجودات بتقدير حركتها إليه . وأشرتها حركة لإنسان إلى معرفة وشوقه إلى أكل

• • •

يعرف قول الله الأكبر ربه . لأصغر من منصوفه . كما جاء في آيات

تسب إلى الإمام عن أبي طاهر . أنه تحقق منها إليه . ومنها عن الإنسان

دوره فبك وما نشعر وذلك من وما تفكر
وإعلم أنك جرم صمد يبر . وفك نظوى العلم الأكبر

ووافق القول بنجاة الإنسان بنفسه ما ورد في آيات قرآن الكريم من الأمر

بالتفكير والتدبر . فقال به كبرون من حكاء الإسلام ثم عرف المنصوفة والمتكلمون

بين من بين من المعرفة أحدهما يستقيم بضاحيه عن سنن الهدى ، ولاخر ياتوى به

دون قصد السبيل ، وكذلك قال بن مسكويه بعد كلامه تقدم في فصل آخر

« إن هذا الشوق ربما ساق الإنسان على متبع وهم وقصد صحيح حتى ينتهى إلى

غاية كماله وهي سعادته الثابتة . وقها يتفق ذلك . ورد أعرج به عن اسمت

ولسحق . وذلك لأسباب كثيرة يطول ذكره . ولا حجة بك إلى علمها الآن

ولت في مهذب خلقت . فكأن الطبيعة المدبرة للأحياء ربما شوقت إلى ما ليس

بناه نجم الطبيعي ليس تحدث به وآفت تطأ عليه بمرولة من يشاق إلى أكل الطين

وما جرى مجراه ، مما لا يكمل طبيعة الجسد بل ينميه ويفسده - كذلك أيضا

النفس الناطقة ربما اشتقت إلى النظر والتمييز الذي لا يكملها ولا يشوقها نحو سعادته

بل يحركه إلى الأشياء التي تعرتها وتقتصر بها من كماله . فحيث يحتاج إلى علاج

نفساني روحاني كما احتج في لحالة الأولى إلى طب طبيعي جماعي ، وتلك تكثر

حاجات الناس إلى المؤمنين والمنعمين وإلى المؤدبين والمسلحين .. فإن وجود تلك

الطبائع الخاصة التي تنساق بذاتها من غير توقف إلى السعادة عسرة لوجود لا توجد إلا

في الأرومة الطوائ والمدة البعده . وهذا الأدب الخفي الذي يؤدي إلى غيتنا يجب

أن نلاحظ فيه المبدأ الذي يجري مجرى الغيبة ، حتى إذا لحظت غيبة تدرج منها إلى

الأمر خفية على طرق التحيل ثم يتدفق من أسفل على صريق التركيب

وينبئ أن يعلم أن كل إنسان معد نحو قضية ما . فهو إليها قريب وبالوصول .

أخرى . ولذلك يصير معدة لوجد من الناس غير سعادة الآخر ، إلا من اتقى .

فمن صدقة ومبيعة فائمة بتسلي إلى غابات الأمور وإلى غية غاياتها . وأغنى

لعدة بقصرى حتى لا سعدة بعده .

يرى المنصوفة أن معرفة معرفتان كما يرى الحكماء من أمثال ابن مسكويه .

ولكنهم قسمونها إلى معرفة لدنية ومعرفة كسبية . ويقصدون بالمعرفة اللدنية ما

يدركه الإنسان بالإلهام والاشراق ويهتدى إليه برياضة النفس وقمع الجسد . وهي

معرفة غير معرفة التعليم والقداسة ، عن حد قول سعيد بن أبي الخير في روى من

كلامه عن ابن سينا « أن من يرى على ضربه انصراح وصل إليه هذا الأسى

بعكازه .

ويشبه قول ابن سينا عن الحسن الصادق أنه حالة يذل بها عقل الإنسان

مصدر القول جميعا ، يدركه بالإنعام والتوفيق ما ليس يدركه الله بالبدن

• • •

وبعد غير هذا الفصل بين لمذهب حجة الإسلام الإمام الغزالي في حكمة

المحيذات وحكمة خلق الإنسان بين خلائق السماوات والأرضين . وهو أشد ما

قد عر سسة الحق العلى بفسير أهل السنة . على هدى القرآن الكريم .

الإنسان في علم الحيوان وفي علوم الأجناس البشريّة

الإنسان من القناريات Vertebrates . ومن الأوائل Primates بين القناريات .
وهذه الأوائل تسمى أحيانا بالبشريات Anthrope de وتشمّل الإنسان والقردة
أعلا ، وهي الخربلا ، والأوراج ، واشم نرى ، ولجيون .

ويخص الإنسان من بين البشريات - سم بمهر وهو اسم الجنس Homiidae
كما يخص القردة على عمومها باسم الجنس simidae فيفرقهما هذان الاسمان
حيث يجمعهما اسم البشريات .

ويرى بعض علماء أحياء أن اسم الجنس يفضى عن الكائن الذى وحدت بقية
من جنسه في حفائر حارة وأطلق عليه مكتور Dubois الذى وجد تحت لفة
Pithecanthropus Erectus دلالة بقاياه من عظامه وأمنه بالتوسع لدماع
على البشريات ، ولكن لرأى الغالب الجهد أن النوع الإنسانى بزياده التى بقيت له
اليوم مخالف في الخصائص الأنسية لصاحب تلك الجمجمة ، وأن هناك اختلافا غير
قابل بين أناس الحفائر من قبله وبين الإنسان الذى يطلق عليه اليوم اسم الحيوان
الناطق أو العارف أو اسم Homo Sapiens من كلمتين اللاتينيتين «هومو» بمعنى
بشر - و «سابين» بمعنى ذى لهم أو ذى إدراك أو ذى كرامة .

ونقل هنا خصائص النوع الإنسانى و علم حيوان ، كما كتبها آدم الكتب
العلمية التى بحث مذهب التطور باللغة العربية . وعيت بإيراد أوجه الاعتراض
عنه وأوجه الاختلاف بين الإنسان وغيره من البشريات من الوجهة التشريحية كما
فردا علم الحيوان قبل نهاية القرن السابع عشر . ونفى به كتاب «توبير لأذهان في
مراجعة الحيوان والإنسان» مؤلفه «كثير بشر» زول - وقد صدر الإذن

بطبعه من نقارة العارف بالأستاذ بتاريخ ١٢ رجب سنة ١٢٩٧ وتم طبعه بعد ذلك
بتطبعة مجلة الجامعة في الإسكندرية .

قال المؤلف في الصفحة (١٦٧) من المجلد الأول : « فإذا نظر إلى الإنسان على
سبيل المقابلة بتلك القردة التى هي لأشد أقرب الحيوانات إليه ، يرى أن الإنسان
ماش متعصب القائمة على قدميه ، لأن سلسلة ظهره مقوسة في العنق وفي الظهر وفي
الصلب ، ونبس للثفلة شئ من ذلك . وعة ذلك على ما قل بعض المدققين
زيادة نمو الدماغ ، لأنه يؤدي إلى كبر المخ . فتغير الجلطة بدليل عدم استوائها
في الأستقال . وبناء عليه تكون موازنة الرأس للبدن سببا لاستواء الجمجمة على
العمود الفقري ، وقد لوحظ أن الأقواس الثلاثة المذكورة تكون في التمددين أوضح ما
هي في التوحشين . وعلى الجملة فإن موازنة الرأس مع البدن في أكثر الحيوانات
التيوة نشاط . الأربعة العشرة ، وهي قوية جدا فيها وفي القردة بالعضلات المتدة التى
تدعم في الفخذ والساق (التوتة الشوكية) وهي فيها أطول وأغلظ . في
الإنسان بضعفين ، ويتوقف عليها وهو الرأس حفظ الرأس على الوضع الأفقى فلا
يصط على الصدر تنكث . وليس لأمر كذلك في الإنسان لأن ثقل جسمه
يتكأ مع ثقل العوز أوجس فيستوى الرأس على الحانة بدون أن يكون للعضلات
والأربطة اعقبة إلا اعطية على التوتة المذكورة ومقاومة ميل الرأس إلى الأمام .
ولذلك كانت هذه الأربطة في الإنسان ضعيفة . قال الأستاذ برونا Proca وتابعه
كثيرون ، أن السب في انصاف لمة الإنسان واستوائه عائدا على قدميه إنما هو نمو
الدماغ ، لأن هذه المشية تجعل اليدين مضغى الحركة والنظر متجها إلى الألف .
وعقل الإنسان يشبه الدبابات ، لأنه عديم لأقواس الفقيرة فلا يظهر القوس العنق
إلا متى ابتدأ العنقل أن ينحيط رأسه في اجسة التى يعود عليها ، وذلك في الشهر
الثالث من عمره . و السمة الثانية غالب يكون القوس الظهرى من حرة فعل
العضلات لظهيرية والصلبية للفر السهل للعمود الفقري ، وذلك إذ يندبى لطفل
أن يلوح .

« وبجملة فإن الخاصية التى يصدر عنها حسن تقويم الإنسان ويتوقف عليها
تميانه على سائر الحيوان . وتفادرت بحسبها مراتب الأمم في المدنية إنما هي نمو

للدماغ وزيادة حجم الجمجمة ، وقد تجمع الباحثون على أن معدل وزن الدماغ في الأوربين يكون متوسطه في الرجال ١٣٠٠ غرام ، وفي النساء ١٢٠٠ غرام . وأعله ١٦٧٥ غراما ، وأدناه ١٠٢٥ غراما .. وما نقص عن ذلك يدل على لبلاهة لئلة أو آفة .

والقرد الشبيه بالإنسان أكبر حيوانات دماغا ، ومعدل وزنه اشتبط فيها ٣٦٠ غراما ، وعادة ما يلف في الأورج ٤٢٠ غراما ، وقد عد ذلك من الشواذ .. وعلى قدر نمو الدماغ تزداد معه ضعف ويقل البؤر الوجعي ، ويحرق بين الإنسان والحيوانات من هذا القبيل توسع من أن يبين - فدا نظرت إلى جمجمة إنسان من الأهل لا ترى البؤر الوجعي بخلاف ما إذا نظرت إلى جمجمة القردة وغيرها من الحيوانات . وإذا نظرت إلى جمجمة عرد من جنس ، ترى الوجه تشخصا إلى الأمام يؤلف خطا مستقيلا . وذلك من الخفص نهمية . ويستدل على معرفة درجة هذا الخوض بالتزاوية . وجهية . ونسلا عن ذلك فنظره الوجعي لمعظم الوجعي قليل الشبه في الإنسان حذاف ما هو عليه في القرد ، إذا نظرت إلى اجمجمة من الوراء لا ترى الشف الخصري في جمجمة الإنسان وتراه كما أوقسها منه في جمجمة القرد . وهذه الأخرى الدالة على الشرمة والصفات نهمية في القرد غير موجودة في الإنسان وهي لا بد منها عن نمو العضلات المضغية التي يترتب عنها تحريك الفكين الضخمين ، وعن نمو عضلات القذف التي يتوقف عليها استناد الرأس على العنق . ومعلوم أن قحف الحيوان الصغير لا يشع لاندغام هذه العضلات فيه ، فحدث انضغبت النسيج العظمي في إبان نموه أن يهيأ لها متلغا ، فنشأ عرقا . والدليل على ذلك أن هذه الأعراف لا توجد في القرد الحقيقية . ومثل ذلك يدل على التواء الشوكية البارزة في عنق النمل . وما كانت هذه الأعراف والتواءات أصغر في الأوربين كما هي في سائر قردة لم يتواءم رأسه على بدنه ، فبقي الخطم يتقبل مدلل على صدره . ولذلك خص بالانكسار خنجرية تنطبقا لضبط خطمه على مجرى الهواء . أما الخون لخطمه صغير وعرضه قليلة لتيه والأكاس الخنجرية غير موجودة به ، فهو قرب قرد إلى الإنسان ولكن

طول ذر مبه يبعده كثيرا عن الإنسان ، لأنه يتوكأ عليها في مشيه كما يتوكأ الإنسان على حروبه ..

ومن الخفص مبرقة بين الإنسان والقرد اهم الرجل ، فهو في القرد أشبه . اهم اليد لأنه يزوم كلا من الأصابع وبلامسها . وهو ليس كذلك في الإنسان ، لأنه يمسك فيه حاة لثني وانصبب العامة كما أنه يناسب في القرد حاة لثني ولا يمسك .

ومن هذه الخفص تدين شكل الأسنان وحجمها .. فسنن الإنسان بالنسبة إلى حجمه أصغر مما هي في القرد . وإذا تأملت في الصورة وعنك من منظر حول أنيابه . لم تواجه الطواجن في هذه الحيوانات لكثرة جلد ، بالنسبة إلى سبب انقبض الوجعي من اجمجمة .. وما عدا ذلك فن وضع الأسنان في نسيج لائن على سبي متضم حذاء لما يرى في القرد حيث يتخلل نقي العلك على وجهه . وخلاف تماثل به أسنن لثني .. واخفص شيرة للإنسان تزداد وضوحا بقسده اللدني والعمر . لأن الخيل عرق انغاش يؤدي إلى توجيهها فبتعد عن الحة الطبيعية كما ترى في أفوس العمود لفقري . لثنيها في التمدن أكثر وضوحا مما في النوحن

وتجمع علوم الإنسان إلى علم الحيوان لدراسة توارخ البشر الاجتماعية . كما يرجع إليه أحيانا في دراسة تقدمهم الثقاف منذ وجد الإنسان بخصائصه المعروفة لحيون النحن Homo Sapiens وقبل وجود هذا الإنسان في العصور المسحية في مستخدمت فيه آلات عمل شئ من الحشونة البدائية . وبشع - من أجل ما - أن هذه علوم قد أثرب بمسب تطور كسطه لأمرك . وكما سبعة . يون من بعده . ولكن الأصح أن المعلومات المتشعبة التي تجمعت من درس سائر وصفات الأدم وحالات المعروين والمعربين من أرجاء العالم القديم والعاء حديث .. فذلك ما أثربا بين في مذهب التطور وفي سائر العلوم الإنسانية متعددة . ومن علم السلالات وعلم الإنسان وعلم الاجتماع وعلم النفس وعلم قدرته بين المعش

كقبا للموازنة بينها ولتقابة بين عوامل تقدم وعوامل الجمود والتأخر في تراكيبيها ونعيراتها .

وتنقسم اللغات من حيث التكوين إلى لغات النحت . وهي التي تكون فيها الأسماء والأفعال والصفات بإدخال مقاطع صغيرة عليها أو إلحاقها بها . ولغات تجميع . ولغات الاشتقاق . فعبء النحت هي التي تكون فيها الأسماء والأفعال والصفات بإدخال المقاطع الصغيرة عنها أو إلحاقها بها . وتسمى هذه لغات يلفروية في اصطلاح الأوربيين : Agglutinative .

ولغات التجميع هي اللغات التي تتشعب فيها تحت وبس فيها لتتغير معناه في اختلاف مدلول مع . لغات التي تتشعب عن كلمات أو جمل لها . ومن ههه . اللغات ما تكون أسماؤه وأفعاله في جملة تتألف من عدة مقاطع موزنة أو غير موزنة على تسبق واحد في جميع الكلمات . ويصعب على لغات التي تكون هذا تكوين أن تسمى بجملة Polysynthetic مع وصفها باللفروية . فحائب صحيح

ولغات الاشتقاق هي اللغات التي يتم فيها فعل التثاق في كل مادة . وتغير قواعد لصرف فيها على مخالفة بين دوران بحسب معناه . ويكثر فيها اختلاف الحركة في أواخر الكلمات على حسب موقعها من الجملة

ويشيع النحت في اللغات الهندية الجرمانية . كما يشيع التجميع في اللغات السامية ولغات الهند الأيركية الأصيلة . أما الاشتقاق فهو من خصائص اللغات السامية . وتؤكد لغة العربية أن تنفرد من بينها بعموم الاشتقاق وإطراده مع مراعاة الحركة على أواخر كلمات حسب موقعها من الجمل بعيدة .

وربما اتفق اللغويون على قواعد عامة . عملت في نظن هذه اللغات جميعا ولا تخص بها لغة من دون سائرهما . ومن هذه القواعد العامة أن الكلمات الانفعالية تقلبية أسبق من كلمات الارادية تفكيرية . ويريدون بالكلمات الانفعالية ما يصدر عن الإنسان عفوا من الأصوات والصيحات التي تصدر عن الفرح والغم أو

دهشة . وما تكون الكلمة فيه أحيانا من قبل المحاكاة الصوتية Onomatopoeic كاسم البلب . والككرو . والتقاط الدق وتقطع والنوسمة وما جرى مجراها . ويريدون بالكلمات الارادية تفكيرية كتق ما يقصده التكلم ويجري بسبه من القياس والاستعارة وإطلاق القاعدة الواحدة على اشتباهاة نطقا أو نطقا ومعنى وأكمل للغات على سنة التطور والتقدم في الثقافة تلك اللغات التي انتظت قواعدا الصوتية Phonologie وقواعدا الصرفية Morphologie وقواعد التراكيب والعبارة Syntax ويضاف إلى لظواهر الصوتية والصرفية والعبارة في قياس تطور اللغات ظفيرة التحين والتخصيص في الصفات إجمالاً وفي القدرات عن التعميم . كالتفريق بين الذكر وتؤنث ونحوه . وبين المفرد والمثنى وجمع وجمع التامة وجمع الكثرة . وبين الصفات العرضية وصفات لازمة . وهي جميعها من أرايا التي لا يحق يكتب المعنوية أن يبرر . مرضاة حازمت لمن يكتفي بحد العلامات اللغوية ويفعل ذلك عند تصنيف على لغة وقواعد .

ففي صدد الكلام على تطور الإنسان . وعلى تطور الإنسان الناطق صفة خاصة . بحق للباحث أن يشير إلى دراسة دراسات المعية على مكان اللغة العربية من التطور وتغنيق خاصة لانسانية كبرى . وهي خاصة بحق واحصير . فقيام اللغة على القواعد تفكيرية دج لا شك فيه عن سبق لغة وتقدمها على لغات الاحتمال الجزاف في وضع الكلمات . سواء دعاة الصوتية أو بالتذكير على غير قياس . وشيوع القاعدة في فعل كل مادة وفي تعريف الأسماء والصفات من دليل على سبق التفكير في التعبير وتنبس على الأحداث والمعاني غير موقوف على أصوات الانفعال والمحاكاة . ويشيع ذلك شيوع لاسعة ويمكن الجمع بين التوضيح تحقيق والوضع احزى في كلمة التكلم لتوسع المعاني وبناء الكلمات على تضادها بين المدلولات .

وفي قدم الإنسان الناطق Homo Sapiens قول متفرقة بأحد كل قريب من عشاء الأجناس البشرية بقول منا . ويتعد بعض الاعتماد عن قول مخالفه . ويرأى يبرى وليوت سيبك أن الثقافات البدائية والعالم المعاصر تتشبه في أصل

واحد وهو أصل الثقافة بوادي النيل ، ومنه انحدرت إلى القبائل القريبة ثم إلى القبائل البعيدة ، فخلقت معها وانتكست بانكاسها أو تقدمت بتقسيمها على حسب نصيبها من التقدم .

ورأى الأكثرين أن نطاق الثقافة الأولى أوسع من ذلك في أصوله ، وأنه يشمل الخوض الشرق للبحر الأبيض المتوسط وروادي التهرين وإقليم الشمال من الهند والصين .

والرأى الذي يأخذ بالمفهوم المطلق ولا يتكفف الاستقصاء والمقارنة بين الآثار يحكم بضرورة تقدم الإنسان الناطق حينئذ وجد في بقعة من قاع الأرض . ولو لم ترتب هذه البقاع برابطة جغرافية أو عنصرية تدل عليها الآثار والخلقات . ولا مانع عند أصحاب هذا الرأي من استغلال ثقافة الكسك وثقافة البابان . وإن جاز لانس . بينهما قديما قبل عصور التاريخ .

• • •

ولأن ، وقد مضت هذه الأشواط الطوال على الإنسان لناطق ، ومن ثقافته تنوية ، يعتقد علماء الدراسات البشرية أن هذا النوع ، يقوم على مفاتيح الطرق بين وحدات الأرض جميعا وبين قبة في الغد المجهول قد تستقيم به على سبيل خبر مسبق ، وتشرع له دستور من العلاقات بين أنواعه وأحدهم يعرفه مثال في حضارته الغائرة أو حضارته المعاصرة .

إن الأشواط الغائرة قد انقضت كما تقدم - على مرحلتين شاسعتين . متفرقتا تحت لألوف من السنين : مرحلة الصراع مع الطبيعة ، ومرحلة الصراع بين الإنسان والإنسان للعبية على سيطرة العالم المصنوع .

ولا تزال المرحلتان ماضيتين في عمق السامى والاجتماعى ، وورسلها تفكرى والأخلاق ، فإن تسخير القوة إنما هو امتداد لاستخدام التاريخ قبل التاريخ ولم يته إلى غاية حتى أواسط القرن العشرين . ومن تصورات الوجهة بين الغزوت إنما هي امتداد السلاح الحجري قبل ألوف القرون . ويتساءل المصلطعون لغف - من علماء الدراسات البشرية وغيرهم - هل من جديد ؟

من يكن شك في الجديد المجهول . فلا حوال المكشوفة لمنظر تبتك القديم

عبر القديم ، وأن التغيير الذى طرأ على القديم إنما من هذا لتقارب الدم بين أجزاء العالم وهذا التشابك المتغلغل إلى الأعماق في مصبح الأمم والجماعات ، وهذه الوحدة العالمية التى لا تنفصل فيها جماعة من الناس حصر بصيها ولا يحيب منها تقرب والبيد من الجماعات : شعوبا كانت أو عرثف وطبقات ..

بقى الصراع بين الأمم ، وتغير منه أنه كان بالأس صراعا بين متين لتغيب حناهما على العالم المصور حول الأممين ، فأصبح البره صراعا بين شطرين من أمم العالم كله لتغيب نحة اجتماعية أو إيديولوجية . عن العالم كله بسلاح لقوة أو سلاح الدعية ، ومصير هذا الصراع هو الغد اعجب الذى يذبح الإنسانية بحدى حاتين : وحده عالمية تجرى فيها دساتير الحكم والتحكيم والأخلاق على سنة النصارى ، والتسامح ولو بين المتخالفين في تنصيلات هذه الدساتير ، أو حرب حائقة تبو الثقافة والآداب النفسية والعقلية إلى سئات والانتكاس ، وعود بالأمم إلى أول شوط جديد . يعيدها كرة أخرى إلى حداثتها المتروكة منذ دهور . ومن . . . يرى أن يرصد ذلك البعث ، أو تن القيامة ، ب ينفع له من وسائل نظر إلى الزرع المغموم والغيب المجهول .

المعروفة في مذاهب الصين وهي : الزن Zen ليست عريما منفصلة المنفصلات والتتائج مشروحة القضايا والبراهين وإلغا هي حالة كحالة الرشد الذي يبلغه الشيخ المثلث بالنسبة لغزارة الطفولة ، قوامها مُسرة على مضة الحوادث والأشياء مقابلة لتصرف الرشيد : لأسباب قد تعرف عند الشرح والتفصيل وتعرف لها برهبتها وأستبدها بالمعاني والكلمات ، ولكن حاضرة قبل ذمت حضورا ساكنا رصبا في لذهن بعير معاني أو كذبت ، وشعوره عند الحكمه إن من يعرف لا يتكلم ومن يتكلم لا يعرف .

ومناه : لإنسان في مذاهب الحضارات الكبرى مقبول بتعريفاته وصناته في جميع لديانات والعقائد الروحية ، وفي وسع العالم - حتى أن يقول بصفة جامعة من هذه الصفات دون أن يعرض لتأنيده . أو يدفع اعتقاده المبدئي بتفسيرها على معنى من مختلف معانيه . وفي وسع العالم المادى أن يفسر صفات الإنسان على حسب هذه التعريفات دون أن يتمسك بما مرجعها وراء المادة والطبيعة بخلاف ما عساه أنجب أو ملودوسا مديرك في عام شهادة .

وفي وسع كل قائل بذات من هذه المذاهب أن يعلل أخلاق الإنسان جميع تنازع البقاء مع أبناء نوعه أو مع طبيعة وعناصرها

وفي وسعه أن يعلل الأخلاق الإنسانية جميعا بطبيعة عدم النزاع عن سعادته . أو بتأثيرية الجسم في تطورها المخلدة بعلاقات احسين

وفي وسعه أن يعلل تلك الأخلاق بسبب قسوة ولسيادة . أو بسبب لأمن والندوة أو استيلاء طبيعة وتفسير الإنسان كل ما حسه في حسه بقصور لأحواله ومجملات الحية .

وتم يبرز خلاف الرأي بين الدينين والماديين حين سحتون في الملكات المعنوية التي تنبع بها الأخلاق في كل تعريف من هذه التعريفات : هل تنابع بحجة روحية من مصدر وراء الطبيعة ومادة ، أو هي منومة فيه بوضائف حياة الجسمانية التي لا فرق بين الحيوان فيها غير فرق سدرجة ولا الكيفية .

مثال رأى المديني يقول به ريدلي Ridley صاحب كتاب الإنسان في حكم العلم Man, The Verdict of Science ويستند فيه إلى آراء جماعة من علماء الكيمياء الحية وعلماء البيولوجي وعلماء الاجتماع ، ويوحده في بضعة أسطر فيقول : إن الإنسان - وإن كان قد أتى عن قوى عقلية نفسية تعملو كثيرا على كل قوة بين عنها كائن حي سواء - لا يزال وحدا حيوانيا له قرابته بالخلائق السفلى . ولم ير الإغريق الأقدماء داعيا إلى فصل الإنسان عن جمهرة الكائنات الحية التي كانوا يشهدونها حومة ، وقد أدخله أرسطو في نطاق برزخه الحيوي مع سائر الحيوان والنبات ، وجه نيرس (١٧٠٧ - ١٧٧٨) بعد قرون عدة فنشر كتابه عن نظام الطبيعة سنة (١٧٣٥) وقد فيه نوع الإنسان بين أنواع الحيوان ، وقد عده في طبعة الكتاب : الأولى بين ذوات الأربع من القردة والدب الرسيف . وبوهو الفرنسي معاصر بنوس ، وضع الإنسان في المملكة الحيوانية واجترأ على أن يحتل سببه مع لقردة بل أصل واحد . وكان هذا أكثر مما يطاق في عرف السلطة الدينية الفرنسية فخرء بين التبدوين تمثيل رايه ، وهو تخيير يعرض له ليتوس في البلاد السويدية . وقد وضع الإنسان وضعه حكمه في تعريف الزولوجيين فجعلوه بين أعلا الأحياء وهي ذوات العقديات ، وجعلوه بين هذه في درجتها وهي الحيوانات البون ، وأعلما بعد ذلك صفة لأوائل التي تشمل القردة والبنايس . وهم يفسمون الأوتس فأما أعلما القسم البشري Homo وهو النسب الذي كان ينسب إليه بعض الأحياء ممن بقيت آثارهم في حفائر الطبقات الأرضية ، ولكن الإنسان الحديث وحده هو الذي يصدق عليه اسم البشر الناصق أو الحيوان لعرف .

فالمديون من البيولوجي والزولوجي والزولوجيين يرون أن الانواع بالإسكان إلى درجته المتعددة في تقسيمات المبررات كما أنهم الفارق الكبر منه وبين الأوائل Primates وبين هذه الأوتس وما درجتها من أقسام التقديرات وما دون المقاربات ، ولا حاجة - مع هذا الفارق إلى الدرجة - إلى فارقة آخر من عالم وراء المادة ولطبيعة .

وقد اشتهر في أواسط القرن العشرين علماء بيولوجيون من رجال الدين المسيحيين يسلمون كل درجة من درجات هذا التقسيم . ولكهم يقولون إن الفارق لا بينهم إلا على وجه واحد ، وهو أن الفوارق جميعها من درجات الأحياء إنما ينتهي إلى التدرج بينها في الاستعداد للعقل والوجدان ، وإن أرفع درجة يرتقي إليها الحيوان الأعجم لا تمنع أن تكون إمدادا للبنية الحيوانية أن تتقي ما فوق ذلك من ملكات العقل والوجدان .

وشهر العالمين بهذا الرأي الأبيير تيلهارد دي شاردين Pierre Teilhard de chardin بيولوجي الشخص المخصص لدراسة علم الحياة والحضارة وأحد الذين أسهموا في تأسيس كنيسة بكن . ألفا ليدوس العسية في المعهد الكبير . ومنها معهد نيوسيريل لعالمى بالقدرة . وكتابه « مذهة الإنسان » The Phenomenon of Man أحد الكتب العلمية فلسفة التي عدت في أواسط ثرون العشرين بعض معالم الطريق في اتجاه الفكر الحديث . وقد سم في تسميات علم الحياة وعلم الأحياء حرفا حرفا ثم عتب عليها سلا . إذا كانت نصة الحية لا تعدو أن تكون حركة إلى نوعي و : فتاب من تركيب لأجهزة العضوية . ونتيجة اللازمة حتما عتا بلوغ التركيب غاية المقاربة للإنسان أن يتصل هذا الاقتراب في ابتداء مذهة الأحياء السيكلوجية وبزوجة مذهة الذكاء . ومن ثم يلقى الفهم على « المقاربة الأدبية » ههنا . لأننا قد نشر باحية إذا لاحظنا قنة الفارق شتريعي بين الكائن الشرى وبين من دونه من البشريات على الرغم من سموه المعنى في بعض مظهره . فانه دقيق يقل حتى تكاد تختطفه على الأقل من جانب أصله . ولكن أليس هذا بينه ما يسعى أن يتظفر ؟

ويجوب هذا الرأي بالأمننا المشغولة عدم آخر متدين ، هو الأستاذ ووسل هاريسون الذي يقول في كتابه عن مصير الإنسان : « إنه لا يعرف الموسيقى إذا عرفها كل دقيقة وجليلة من الأخشاب والمعادن والأوتار التي تدخل في تركيب النوبة والقيار والبيان . وبعض علماء الحياة يرقبون تغذية الحيوان ، ويلاحظون أن العواصف تتأثر ببعض الأغذية فتتفص أو تزيد . لاحظوا أن الماء الذي يقل

المحيز في غذائها نمل صفارها ولا تعطف عليهم ، وإنه نحن منهم أن يلاحظوا هذا ويصنوا منه إلى زيادة حصاة الحيوان من دلت الغذاء ، ولكنهم إذا جاوزوا ذلك فقالوا إن عاطفة الأمومة هي مقدار معلوم من المحيز فهم يخطئون ، وحقوقهم في هذا ترى كخطأ القائل أن تغدث الموسيقى أحساب وأوتار .. »

و . . . منحنى الاستدلال لنطق والعلمى . إذن . هذا تفصيل لمذهب انشوية لعقل . ارتقاء حيوان والشمه بين كل درجة من درجاته ومدونها وما فوقه في الاستعداد لأهية عقلا والوجدان . فلا . يحدث ذلك ليوصل إلى حيز بعدد يصلح ليدرس لسط الروح والوجدان . فثبت الأمر على يسبح مدى وموا يقول للمعه صله من روح الدين يكون معيار يتقدم زيادة الوعي عن درجة تدرج تركيب لبنية و وكتب يتأني هذا الانتظام في زيادة وفي النتيجة . إن لم يكن هناك طريق مرسوم بغية مشهورة ؟ . . .

ومن علماء غير المسيحيين من أفنعت هذه حجة بعض لاقناع ووافقت مذهبه في اقتباس « الديانة » من العلم أو « الديانة بلا دحي » . كما يسمونها في مصطلحاتهم المتفق عليه Religion Without Revelation فتاب علم من أعلامهم وهو نسيير جوليان هكسلي في تقديمه لكتاب ظاهرة الإنسان : « إننا نمشربنى آده عنوى في أنفك كل ما في الأرض من الإمكانيات امثة ، وفي مقدورنا أن نزيد ما يحتمل منها عن شريطة الأزياد من العلم والمحبة »

وتكاد هذه الأسطر أن تكون نسخة مصوية ، من كلمات المذاهب التي انتهى إليها سير جوليان هكسلي في كتابه « فتاني جديدة شجرة جديدة »

إن صورة الإنسانية : ظاهرة أعانتق عن أن أرى من وجهة البصا على الأقل . أن الدين والعلم قد يتصان ، وقد هتبر خارج من وتفكر بحق لتأني بطقن عيب اسم الدين ولكنها كانت ولا ذلك نريفة أن تكبت وترتسميا منمبا فهي بهذه المثابة تعمد كيف يسهم العلم في تقدمه الدين . وقد ور جلد في مقالة عن الأهمية كلاما في هذا الصدد كله عنى بلذته عن لوهان

مستقبل الإنسان في علوم الأحياء

إن العلم الطبيعي حذر في تقريره من هذه الأحكام . وأكثره يستبجحه نفسه إذا وصل إلى شيء لم يثبت لديه كل الثبوت . وهو يرمي أمانة العلم كنهائه والخفاء ، أن يعلنه على أنه ظن مرجح وأن موضع شئ فيه قد لا يدفع وتوضح بدليل متظفر بذكر أسباب انتظاره . وكذلك فعل ديون عند عمله لنظريته في تطور الأنواع .

وإذا وازنا بين حذرهم في الحكم على ناض وحذره في الحكم على المستقبل محدود . فهو في الحكم من المستقبل أحذر وقرب إلى التردد إلى التوقف عن مجرد الظن إلا مشفوعاً . اعتباراً بوجه هذا . اختلاف بين حذره من أحكام ناض وحذره من أحكام مستقبل . فهو في ناضه يطمئن ويضع نظيره هذا .. لأن عناء الشئ منحوه لأنهم لم يحسوا وقوع تحول الأنواع وقده الإنسان حذراً وعقلاً من ذلك . ولكنهم لم يحسوا أن هذا منه لوح نفسه أن شيئاً يشق واحد سيحصل عللاً لا نهية . أو بتعبير واحد مرجح لا يقاوم ترجيح منه إلى النقص .

وعبره في هذا التيب مفهوم وهو أن نرى على أن لا لا التطور الناض لم . بعد خاتمة ما على . تكون بعض حذر مرجحة . وهو ينجح من عدم جذب صفة أهم أن تكون من ينجح ..

علوهم أن العالم يرمي لطريق كم نكرم عن . ناض ليس إلا . ولكنه يشق لطريق ويحسب فيه كنه ناضاً جزءه من حين يمر إلى المستقبل ، ولا يتساوى من ينتج طريقاً ومن لا يرمي عنه عن ربه صريح .

إن كان بين علماء العصر من يثق أنه يمكن أن يجازى عن مستقبل التكوين الإنساني كما يشكك علم أجنة فذلك هو البيولوجي . الكبير الأستاذ «مدوار» Madenar صاحب جريدة نزل للعلم خبير . سنة ١٩٦٠ . وحسب نبوءات لعالية في تبة جسم الإنسان . قول أحدهم حرية حتى تغيره خلاياه على الرغ

من تقسيم الآدميين إلى فئات وعائلات في تكوين الدم وأنسجة الخلايا ، فإنه قد تبين من تحوير يصيبها الحصر أن الفرد الإنساني وحده لا تتكرر في مكونات بدنه . وأن كل حكم عن بيته من طريق لتقسيم إلى فصائل وعائلات فهو تقسيم قابل لحفظه عند إجراء التجارب الطبية لنقل الأنسجة ولأعضاء من بيته إلى بيته ..

وله مثل هذا لعلم الكبير أن يثق محاضرات ريث Refill عن (سنة ١٩٥٩) قد . لم يكن ينبع به الادعاء أن يثق هذه المحاضرات بعنوان مستقبل الإنسان . لأنه عنوان مقترح عب . ولكنه على هذا لم يفرد بالآراء في مسألة من مسائل البحث المقترح . وهو يفتن رأياً وحداً قبل أن يراجع في موضوعه زملاءه الخلفاء في مساهمة ذلك الموضوع على التخصص . وقد ذكرهم بأسمائهم في تمهيدهم لمحضرات . وبعد أن ذكر فكرة البيولوجيين الذين يحسون أن تعدد الفئات الخفية قد تحول دون التنبؤ لإخراج النسل على خط مقدور . مضى يقول : « إن الأمر يدعو إلى حذر . هل يتقن الإنسان أن يمتطي منطق غداً كما يتصور بالأسس . أو هل سيستقر عليه تدمور . إن الظن بأن هذا التطور قد يلق أقصى مداه ؟ »

وطني لأتدق يقرب وجهه التقرب ويعدو بينها حتى ينع نهاية محمدينه وهو لم يخبره فقط بمصير محدود . . سوى أنه رجح بعض الفروض ولم يسألنا بذكر أمها فروع تحيط بها التشكك والاحتمالات .

فإن - مثلاً - إن الاحصاءات في بريطانيا المعطى دلت من تكثر نسبة تزيد لتدوير بعد الحروب . وإن بعضهم صر بذلك بأن الطبيعة تعمل لعروض تسهل عمل عدو في كثير من الملاحظات . فهو تفسير ليس بالغريب . ولكنه قد يصح ليقن به أن هذه الزيادة أيضاً قد شوهت في أهم لم تفقد أبنائه في الحرب ولم تكن من الأمم الفتنة .

وقابل الأستاذ بين طرائق الاحصاء . ومنها طريقة المقارنة بين سنة وسنة . وهي غير ودية بالقدرة الدقيقة . وبين طريقة اختبار طائفة من الرجال والنساء وتسجيل ما يحدث ضد على مدى الفترات الضوالة . كل عشرين أو ثلاثين سنة . فإنها طريقة لم تكن مسيرة الرسائل قبل السنين الأخيرة .. ولكنك تسميت الآن

لانتظام الإحصاء في شتى مفاصل الحياة . ومنها تسجيل نسبة الجنين وتسجيل معدل العقود الزوجية وسن الإكرويس الأتي عند الزواج . وتسجيل هذه السن عند ولادة كل مولود أو موليدة ، وهذه الطريقة تفيد ما لا تفيد الطريقة الأولى عند تحليل تعويض المواليد - ميات ، لأمر تين الوقت الذي تحدث فيه أوائل المواليد وتبين للقائمين بالإحصاء هل يزيد عدد البردة خصبة لعنية أو لبردة الوقت المحدود للإحصاء ؟

يزود حلاياهم الناصقة بنش ذلك الاحتياط لمقاومة آفات المستقبل . وقد يدهش السامع - بعد كل ما عرف عن ابرائة - أن يسم أنه لم توجد بعد فكرة رامية من الأمور التي غفل والأمور التي تجنب لتحييف نتائج الحيوان بالانتخاب لصاى .

أرادني أقارب الموضوع ابين إذا عبرت عن ذلك بمثل محسوس ، وأسألكم
أن تميدوا إلى الذكر ذلك الفارق الحام بين الصندوق العزف وجهاز الحاكى
الحرافون .

أفالسندوق العزف جهاز يختص قلب أو أكثر من قلب من قلوب الجرامفون .
بعد مسمع كل ما أودعه على لمس زر معلوم ، وسمى من ذلك زر بل باعث أو
عزف .. وهو باعث منصور على القالب الذى يؤدى إلى مزاجه . فهو مؤثر واحد
يقى أثر واحد بينهم هذه لعلاقة المتبادلة . وإتقى أبعد لصندوق بلمس الزر
- أى زر - إلى إعدادات نغمة موسيقية . ولكنى إذا اخترت زوا معينة
فبعث هنا يدعوه إلى إعدادات نغمة دون سائر النغمات الموسيقية . والتوجيهات
موسيقية في هذه الحدة جزء من الصندوق وليست جزءا من البيئة المحيطة به وكل
نفس جمع في تركيب الصندوق فيمس صغرى عن وترجيح لتسوية ، هذه
هذه موسيقية .

.. ولأن تصويت بين هذا وبين عمل الجرامفون أداة أخرى تؤدي إلى
سائر موسيقية

.. أنت قوالى موزيعة أقوم بتحريك بعض المفاتيح وأضع نقالب عن
جرافون وأقالب مقول لها من البيئة المحيطة .. هناك عكاش الصندوق
تعد إلى أداة الأبدع الموسيقية ، ولكنه يصيف زر الباعث هناك شيئا أكثر من
ذات .. وهو الخطوط المرسومة التى ترميها لإبرة فتبع منها لأنغام الإزادة ، وليس
لدى جراففون مصدر للتوجيهات الموسيقية وإنما هو نقالب الذى جاء إلى الجراففون
من بيئة الخارجية . فكانت علاقته به - إذن - علاقة نسبية ، لأننى
سمعى من لدى قد عدته كيف يريد العلم المسبح .

.. ونحن في خلائع سمعنا الصندوق وصعد الجراففون وأعدنا كلا منهما
لعمى الذى يؤديه . ولكن هذه الحقيقة لا تقدم ولا تخفى مغزى الاختلاف بين
عمل هذه الأداة وعمل تلك .. فلندكر هنا الاختلاف فيما يلي من التدرجات ..
.. منذ عشر سنوات نفعه لبيولوجيون إلى العرب بأن الأجهزة خلية العليا فيه

الصندوق العازف منها بالجراففون ، وأن كل ما كنا نحسه من قبل حركات نسبية
هو في الواقع حركات تنبؤية ليس إلا .. أى أن تحريك الكائن الحى بحسب شئ هو
نتيجة تركيبه وليس - كما كان مضويا - نتيجة شئ من عرج .
فأبست الآثار المستقرة في الجهاز الحى خفوت مرسومة على قالب يدوره ذلك الجهاز .
ولكنه آثار جينية مودعة في الصبغيات وحماض الخلايا .
وسمحوا لي أن أبين بعض الأمثلة لهذه الحقيقة .

.. فاقدم الأمثلة وأتبعها مثل التغيير الذى يعترى جهازا من الذئب عرض ،
الظهور ، فكيف تصنف الواعث التى تفعل فعل التصور في الأجهزة الحية ؟ .. نظرية
اللاماركية التى تقول بوراثة الصفات المكتسبة ، هى على أهمها تنظر إلى سوغات
التعليم وتسمى أن البيئة على نحو من الأنشاء قادرة عن إعطاء تأثيرات معينة
للأجهزة الحية ، وإن هذه التأثيرات إذا سارت في البيئة سريرا حسد تمكن أن تنتقل
بالوراثة إلى أبنائها .. فخذاد الذى ضد ضرب به مثل تعري هذه الملاحظة ،
يسببه قوة في ذراعيه من طرف الخلد فتوفر هذه القوة في الخلاه التى تنشأ
بدوره شيرة وتنتقل من ثم إلى أبنائه ، يولد هؤلاء الأبناء وفيهم استعداد لتجربة
الأدراج النورية .. ولست أفصح في مناقشة التجارب على تكررت لامتحان العوامل
اللاماركية .. وحسبى أن أجهنها ما تقول به جميعا أدعرت عن تشيع غير لاماركية ،
وذات على مؤثرات نسبية وليست تعدي .

.. ومثل آخر من الأمثلة الشائعة هو مثل البكتريا إذا أعطيتم ضما غير طعمها
تألف أو تهرز ، لتقدر مضربقوامها . فإياها في هذه الحدة قد أتت بين قومها
وبين طعام الحديد أو ترابى ضرر العقار وتسمى مفعوم ، وقد سميت هذه العملية : إما
إسم شويب الشكرتيا على اعتماد أنها عملية قادت كثيرا من غير غيرة حبيدة
تجربة اجراء من ضومها . ولكنها تساءل : أتت شويلا حتى تسمى حظوظها وتبين أن
هذه عملية وسنة تنبؤية وليست بالعرضية التعليمية .. فليس في رسم لشكرتيا أن
تنشأ خميرة نبرأتى من مقطورة عن شومها . وكما ما حدث من تغير صده به
.. لاسمعى الذى يمكن به منه أن يملك . وهو مستعد دائما لتركيب
وبين بالشعم المستفاد من فعل الطعم أو المقار ..

« وإن الإنسان المتطور قد بلغ حالة من نمو الضمير تسره له أن يوسع أفق النظر وأن يلعب الدور العظيم الذي يشغل به في التماز غيرت التطور . فليس الإنسان كذلك الحيوان الأعشى الذي يعمل في أعماق البحر ولا يدري أنه ينسج حبله جزيرة مرجانية سوف تنمر بالكائنات التي هي أصبح منه وأخرى . لأن الإنسان يعمل وهو يعلم أنه رائد للسلسلة المقبلة التي ستكون عن وجه من وجوه ويده سبب وجهه .. وعلى كل إنسان أن يذكر أن القانون قد كلفه ، وسبق كما كان . له بفضل وأن الضال لم يبدأ لأنه تحول من الميدان المادي إلى ميدان الروح . وعنه لا ينبغي أن كرمه باعتباره كائنات أدب . ينبغي أن نعتبر من جهته في تحرير نفسه . وأن يتقاد في ذلك الجهاد لأعظم البواعث من قسوة وجدانه . ولا ينبغي أن أن الشرارة الإلهية كرامة في تلك القرارات ، في قراراته دون غيره . وأنه هو حرق قدر على أن يحلها وأن يقتنها قدرته على أن يقترب من الله وأنه يعرف من غيره على حمل مع الله والعمل في سبيل الله » .

• • •

ولقد آل تطور الإنسان عند غير البيولوجيين إلى تطور آلياته بحدود وقبيل الصناعة الكبرى هذه الصناعات الصغيرة التي أدت من مئات القرون . فجعلت الإنسان سيد الخليفة حين جعلته قدورا على حمل بيده وحذاء الآلة المصنوعة لا تماز عمله . وسعمل الصناعة الكبرى بأيدى مجاميع بشرية فعل الآلة الحجرية قبل مئات القرون في الإنسان الأول . إذاً تكن له قدرة على الحيوان الأصغر غير تلك الآلة .

ولا نحال أن أحدا غير من هذا الرأي تعبيرا أدنى إلى أهم من تعبير الأصناف رسل هاريسون في كتابه « ماذا يكون الإنسان » . فإنه ثمة لغة « بيل » الحديثة لغسة البليدة العسية بين الفروض الصريحة والفروض المهمة والمقاييلات من هنا والتعارضات من هناك ، ووضع نس التطور حيث ينبغي أن يوضع إن كنهه موضع على الإطلاق . وذلك هو موضعه في « شخصية الإنسانية » .

فلا مستحيل الإنسان إن لم يكن مستفيدا لشخصيته الكاملة . ولا تطور هذه

الشخصية إن لم تكن شخصية « ذات جوانب » ولم تكن جوانبها براء من القصد واحتل ..

إن الشخصية الإنسانية عاطفة ، وعقل ، وضمير ، وليست مجرد أعضاء ووظائف وحلايا وأعضاء . ومعنى تطور الإنسان في الدهن أن تتم له هذه الشخصية بما نبت له بدورها مع أطواره المادية ، وليس في الواقع - يمنع « الشخصية الإنسانية » أن تتحقق كما تحققت في الدهن ، فكرة قابلة للتتم ..

عَوْدٌ عَلَى بَدْءِ

بعد هذا الشوط في عرض المسألة والأراء عن الإنسان سأل على لغة من

الجواب :

- من صحيح أن القرآن يلقب الإنسان غريباً منقطعاً في القرن العشرين . . .
واجوبه الذي لا ترد فيه . أن القرآن - على حقيقته من حيث
- يصح الإنسان في موضعه من يتعلمه . فلا تسعده عقيدة أخرى أصبح له
وأصبح من عقيدة القرآن . لأن غير العلاقات الحية لا ينصب « مواضع » أصبح
وأصبح من الإنسان الذي يؤمن - بأسرة الإنسانية . ويستند أيضاً العقيدة
ومشعر نصيرية لا تعرف بفضل وحده متفق عليه في كل أوصاف بين كل عقيدة
أدبية . وهو فضل الإحسان في عمل واجتهاد الإنسان . ليس هذا عصر حتى
عن باب أصبح وأصبح من حق شعور . وبنسبة . والنسبة بأمانة التكليف
والاحتكاك إلى العقل في كل ما يسهل العقل . ثم صلتان الفهم إلى الخريف من
عليه من شؤون الغيب المجهول . ولأنه في كل عصر حديث أو قديم من غيب مجهول .

إن القرآن بمعنى القرن العشرين إنسانه الذي ليس من إنسانه . أصبح منه وأصبح
إنسانه . فما آمن هذا الإنسان بأنه وبالنبوة وليس أصبح ولا أصبح لعصر الوحدة
الإنسانية من الإيمان برب واحد نعمين ، وبسورة خلد الشوا . بعد الإيمان بهذا
الإله الواحد ، لتسلمه إلى عقله ومسيره ، وتساؤه من إصلاح نفسه وإصلاح دياه
بما يدعو إليه فوام الروح والجسد وطلب الحياة في الدنيا والآخرة .

وإذا كان هذا هو إنسان القرن . نوره ومعناه . فلا حاجة . فأنشد النصف إلى
حذف كبير من الترفع ليعظم من عز إلى أولئك المتفهمين المتفهمين . . . أولئك الذين
وعيونهم لهم فأنهوا بين عقائد . خرجوا منها بملفح الرأي وقد فهم مقطع برأي
من أن القرآن نسخة مكررة - من مشوهة - من هذه الدماء أو تلك الدماء ،

وأنه لم يحدث بعدها جديداً في عالم الروح وعالم العقيدة وهو الذي هدى العالم في أمر
الإله وفي أمر النبوة وفي أمر الإنسان إلى هذا الفتح المبين . وما من بقية في لباب
العقيدة بعد هذا الجهد الدائم في أمر الحقيقة الإلهية وأمر الرسالة والهداية . وأمر
الكائن الحي المميز بين مخلوقات الله أجمعين : وهو هذا الإنسان الذي مخاطبه
الأديان . . .

وقد رأينا مدى الموافقة بين عقائد الحكماء وآيات القرآن في كثير مما عرضناه أو
أشرنا إليه فيما تقدم . وقد نرى - أهم من ذلك - أن آيات القرآن
تفصح للعقل الإنساني كل طريق من طرق البحث والتأمل . فلا تصده عن طريق
قط يتقرب منه معرفة نافع توافق المعارف الشائعة أو تناقضها . لا من طريق يسلكه
الباحث الصدوق هو طريق معقل أمامه يحكم من أحكام القرآن . إلا أن يكون
الطريق الذي لا يفتحه يوماً دين يدعو إلى الله : وهو طريق الإخاد .

فما نلناه من شروح حكمه الإسلام ما هو أعجب من فروع الشوطين بعد
القرن التاسع عشر عن لأحده ودرجاتها من البيسية إلى الفرة إلى الإنسان .
وللشوطين عقدين آراء قد يستمدون تأييدها - لو شئوا - من
آيات قرآنية فسر بها بعض تفسير بتقبله المائلون بتنازع إبقاء وبقاء الأصلح وتنازع
الأمور :

﴿ وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾
(سورة البقرة آية ٢٥١)

﴿ قَالُوا الزُّبْدُ قَدِ ابْتَدَبَ جُحَاءً وَأَنَا مَبْتَلِغُ النَّاسِ قِيمَتُكَ فِي الْأَرْضِ ﴾
(سورة الزهد آية ١٧)
(سورة نوح آية ١٧)

﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ الْمَوَارَا ﴾
فهل من الواجب على المؤمن بالقرآن أن ينسب فيه تأييداً لأصحاب
النظريات ، والغرض في كل عصر يظهر فيه ؟ .. نقول : كلا ولا ريب ، لأنها
قد ثبتت كتبها أو بعضها . وقد بطراً عليها النقص أو التمديل بين حيل وحيل . ولكن
القرآن بعقل الدين الفاضل إذا صح للعقل أن ينسب الحقيقة مع كل فرض من
الفروض . وذلك له أن ينسب إلى نهاية شروطه مستقلاً عن نتيجة عمله وعما يليه أولاً

يفيد من جهوده ومحاولاته ، فليس من عمل لدين أن يتعقب هذه الفروض والنظريات في معرض الجدل لتأييد تفسير أو خذلان تأويل ، وحسبه أنه يملئ للعقل في عمله ولا يصد عنه سبيله ، فهذا هو الوفاق المطلوب بين العقيدة والبحث وبين الإيمان والتفكير ..

فإذا أخطأ من يقحم القرآن في تأييد النظرية العلمية قبل ثبوتها ، فخطأ في الخطأ من يقحم القرآن في تحريمها وهي بين الظن والرجحان . وبين الأخذ والرد ، في انظر البرهان الحاسم من سنات العقل أو مشاهدات العيان ..

وقد أخطأ هذا اخوة جهلاء الدين والعلم الذين حرروا القول بدوران الأرض . وهو أثبت من وجوده على ظهرها . وأخطأ مثلهم من حرروا القول بجرائم الوباء وهي - فيما تبين بعد ذلك - إحدى حقائق العيان .

ومذهب انشطار - خاصة فيما يتعلق بتحويل الأنواع - لم يثبت بالسير تقاطع . لأن نصاره لم يدكروا حتى الآن حيوانا واحدا تحول من نوع إلى نوع بفعل الانتخاب الطبيعي . أو بفعل تسريع البقاء وبقاء لأصلح . ولكن بطلان القول بهذا الانتخاب لم يثبت كذلك . فبطلان التقاطع من وجه من الوجوه . وليس في القرآن ما يوجب علينا أن نقول ببطلان الانتخاب الطبيعي . لأن خلق الإنسان من الطين لا ينافي التحول إلى غير طين ولا يوجب علينا القول بكيفية الخلق من الطين على صورة من صور التركيب . وإنما تعلم من القرآن أن الله بدأ خلق الإنسان من طين ..

﴿لَمَّا جَعَلْ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ (سورة السجدة آية ٨)

وق آية أخرى : « مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ » فلا اختلاف بين هذا وبين التحول لدى يثبت - إذا ثبت - عن وجه من الوجوه .

ومذهب النشوء مع سائر العلوم الحديثة يقول لنا عن المستقبل البعيد أضعاف ما قاله لنا عن الماضي البعيد : هل يتطور الإنسان في النشوء مع قوانين الورثة العلمية أو لا يتطور ؟ وهل يعرف العلماء مسكه في طريق التطور أو لا يعلمون ؟

من رجع إلى القرآن ليعلم حكمه في التطور للمقبل رجده على العهد به يملئ للعقل ولا يصد عنه ملوحي يربح منه الفاذ إلى عمر مجهول . وفيما تقدم كلاما نقلناه عن أهل العلوم « المختصة » بتطور الأحياء وقوانين توريث . تنفست إليه فتعمر أن قوانين التفاضلات والصفات « في الأرحام » لم تنبته بتغير يهدي إلى مصير معلوم . وأثبت ما عندهم من نأ أن القدر كله مرهون بميراث العقل والمشيئة والإيمان ...

فالذي يعرفه علماء الأجنة وقوانين الوراثة غير قليل ينتظر إلى ما كان معروفا من ذلك قبل مائة سنة . ولكنهم - كما نقل - لا يفهمون في تنظيم عمل الوراثة بالانتخاب أو الملقاح في ظلمات الأرحام . وإنما يفهمون أن يفسحوا هدية الإنسانية إلى غير ما تستنبطه العقول المسبية إذا ملقت البية عن حب الخير . وأجمعت الغم على استخلاص النورية المختارة بالتعليم والإرشاد . وجعلت مسألة التقدم وبقاء الأصناف « مسألة فهم واعتداه أدنى إلى لبلاغ من لقاح الأصناف والأرحام

ونقال أن القرن العشرين لم يكن في غنى عن هذه هدية من علماء النشوء . ولكنها اقدانية التي علمها من القرآن من تعمر (أن سلاح الإنسان فكر وورثة وإيمان) (أن الأرض يرثها عبادي الصالحون)

ونمليها كليات موجزة في ختام هذه الصفات عن الإيمان في عقيدة القرآن وفي عقائد الأقدمين والمحدثين .

إن القرن العشرين لم يضع الإنسان في موضع أكره له وأصدق في وصفه من موضعه عند أهل القرآن بين خلائق الأرض والسماء وبين أمثله من أبه آدم وحياء موضعه بين خلائق الأرض والسماء أنه خلق المميز الذي يهدي العقل فيه علم وبالإيمان فيما خلق عليه .

وموضعه بين آدم وحواء أنهم أحوه من عشرة وحدة . أكبره من كره به يعمل من حسن ويحسب من سوء . وأفضها من له فضل بما كسبه وما افتاد . لا يدان بعدل غيره ولا ينجو من بذره بعد عمله

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَمَّا مَا كُتِبَ لَكُمْ مَا كُتِبَ وَلَا تَتَّبِعُوا مَسَاجِدَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (سورة البقرة آية ١٢١)
﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ بُيُوتُ الْمُتَّقِينَ ﴾ (سورة البقرة آية ١٢٢)

فهرس

صفحة

٤ تمهيد

الكتاب الأول : الإنسان في القرآن

١٠ المخلوق المثلول

١٦ الكائن المكلف

٢٣ روح وحده

٢٧ النفس

٣٢ الأمانة

٣٩ التكليف وخبره

٤٥ أسرة واحدة

٥٢ آدم

الكتاب الثاني : الإنسان في مذهب العلم والفكر

٥٦ علم الإنسان

٦٥ الإنسان ومذهب التطور

٧٧ التطور قبل مذهب التطور

٨٥ أثر مذهب الشوء في الغرب

٩٢ مذهب التطور في الشرق العربي

١١٦ الدين ومذهب دارون

١٢٢ مسئلة اخفق العضى

١٣٠ الإنسان في علم حيوان وفي علوم الأجاس البشرية

١٤٠ الإنسان في علوم النفس والأخلاق

١٤٨ مسئل إنسان في علوم الأحياء

١٦٠ عود على بدء